في رحاب أمريكا

Table of Contents

القصّة وما فيها 2
الشهر الأوّل 4
الأيّام الأولى 4
أصحابي الجدد 5
ذلك اليوم 6
الشّهر الثّاني 7
التعليم في أمريكا 7
الرّحلة الأولى: واشنطن 1 9
حلم وقصف 10
رحلة واشنطن 2 11
الشّهر الثّالث 12
مقالات 12
رحلة التزلّج 13
بهاء وبيته 13
إلى الجبال 14
رمضان 18
نيوجرسي ونيويورك 19
الشّهر الرّابع 23
في منزل بهاء 23
محاولة الطّبخ 24
إلى اللّقاء يا حبيبي 24
رحلة واشنطن الأخيرة 25
ليلة من تلك اللّيالي 26
هناء وعائشة 27
إلى اللّقاء 27

الإهداء:

أهدي هذا الكتاب إلى خاليّ عبدالرّحمن وحسن، فأوّلهما وضع حجر الأساس لرحلات عائلتنا العلميّة وأضفى بروحه الجميلة نكهةً لحكايا حياتنا، والثّاني أكمل الرّحلة وحمل شعلة العلم فصقلها وروّض ألسنتها وزادنا فخرًا وشغفًا ورغبة. معلّماي، الشّكر لله عليكما ولنمضِ في سبيل السّعي، ابتغاء مرضاة الله، نلتقي عليها، ونفترق عليها، وهكذا حتّى لا يزول الأثر...

كما أهدي هذا الكتاب إلى كلّ أحبابي في هاريسونبرج، بيتي الثاني.

القصّة وما فيها

استفقتُ صباحًا من شقّتي في بيروت، قربَ الجامعة اللّبنانيّة الأمريكيّة، وقد كان زميلي في السّكن، أو صديقي إسماعيل، مستيقظًا أيضًا، جالسًا على شاشة حاسوبه يشرب الشّاي ويستمتع بيوم عطلتنا في هذا الفصل العصيب. ذهبتُ إلى الحمّام لأغسل وجهي وأداعب أسناني بالفرشاة متأمّلًا جمال السّماء التي طغى نورها على كلّ الشقّة واعتلت تغاريد طيورها مسمعي، حتّى ناداني إسماعيل بصوتٍ عالٍ على غير عادته إلى صالوننا، فقد أرسلت لنا منحتنا الإيميل المنتظر!

صديقي إسماعيل من فلسطين، من رام الله تحديدًا، وأنا من لبنان، صيدا الجنوب، وكلتا المدينتين معروفتين بطيبة الأهل وحسن المعشر، ولربّما كان ذلك سبب انسجامنا سويًّا بشدّة، وقد كان كلانا طلّاب منحة قادة الغد المموّلة من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، التي تجلب طلّاب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا للدراسة في لبنان أو مصر في أحد جامعاتهما الأمريكيّة، وذلك لتنمية صفاتهم القياديّة وتكوين مجتمعٍ أكاديميّ في المنطقة. من ضمن الأمور التي تقدّمها هذه المنحة هي فرصة الدّراسة في أمريكا لمدّة فصلٍ واحدٍ، وقد قمنا أنا وإسماعيل بتقديم الطّلب، واختار كلّ واحدٍ منّا جامعةً مختلفة من الخيارات الموجودة، ثمّ انتظرنا! قاطعني صوت إسماعيل مرّةً أخرى وحثّني على الإسراع في المجيئ، يجب علينا أن نرى محتوى الإيميل سويّةً. جلبتُ حاسوبي ثمّ فتحته وأخرجت نفسًا طويلًا ضائعًا ما بين رغبةٍ في القبول وخوفٍ من الذّهاب، فقد كانت نفسي تتوق لتجربةٍ جديدة أذوق فيها مشاعرًا لم تطأ قلبي قبل ذلك ولم تخالط فكري قطّ، ولكنّه كان يساورني الخوف أيضًا كحال أيّ شابٍّ مسلمٍ ذاهبٍ إلى هناك، وخاصّةً بعد تعرّض بعضٍ من أصدقاء إسماعيل إلى حادثة إطلاق نار لتكلّمهم بالعربيّة في شوارع أميركا. ها هو الإيميل، يحدّق بي، وكأنّي لم أعد أفهم الإنجليزيّة، حاولتُ مرارًا أن أعيد نفسي إلى رشدها، وأن أقرأ الإيميل مرّةً وأخرى، ففهمتُ بعد عدّة محاولاتٍ أنّي ذاهبٌ إلى أمريكا. غزتني مباشرةً صورتي من سنتين، عبدالرّحمن المتفجّر بالطّموح الذي لم يعلم أنّه سيكون في هذه المنحة، ولم يعلم أنّه سيكون ذاهبًا إلى أمريكا، ولم يعلم أنّه سيقود حياةً تشابه تلك التي عاشها كتّابه المفضّلون وأخواله الذين سبقوه، تلك الحياة التي تستحقّ أن تضمّها صفحات كتابٍ أو أن تجمعها مشاهد فلمٍ كلاسيكيٍّ لم نعد نرى كمثله في سينما اليوم، عبدالرّحمن كان مولعًا بالقراءة والكتابة، وقد كان يقرأ عن رحلات كتّابه وأخواله إلى أمريكا لأوّل مرّة، إلى حكاياهم التي تطارد مخيّلته لتستحوذها، إلى كلماتهم التي تقطر حياةً وتجاربًا ودموعًا وضحكاتٍ فوقها ضحكات، إلى صراعاتٍ سياسيّةٍ ونفسيّة داخليّة، جعلت من ذاك الفتى متذوّقًا للحياة كارهًا للفتور،

متذوّقًا للحياة بكلّ أحزانها وأفراحها وآلامها وضحكاتها، لا يريد أن يكون مشاهدًا لسير عجلة حياته فقط، بل يريد أن يكون المشاهد والمخرج والعجلة، يريد أن يكون شريط حياته مستحقًّا لعظمة هبة الله له من روحٍ وقلبٍ وعقل...

بعد زوال الفرحة الأوليّة، انتابني شعورٌ بالخوف، إنّي لم أسافر قطُّ وحدي، وآخر مرّةٍ سافرت فيها كانت في عامي الثاني عشر مع أمّي وإخوتي، نسيت المطار والطّائرة والمضيفة أيضًا، كيف أرسل حقائبي وإلى أين أذهب؟ أين أجلس وأين أنتظر، ماذا إن أضعت الطّريق؟ اتّصلت بأمّي وأخبرتها، فصمتت على غير عادتها، ولعلّي كنتُ أعلم السّبب، أمّي لم ترد أن أسافر قبل الماجستير ولذلك أبقتني بجانبها في لبنان، لكنّها كانت تعلم أنّ هذا اليوم آتٍ لا محالة لأنّها، وعلى الرّغم من حبّها الجنونيّ لوطني، تعرف أنّ لا مستقبل في الوقت الرّاهن لبلدٍ تنهشه أنياب الطّائفيّة وتزيّنه نتانة الفساد. كُسر الصّمت، ثمّ باركت لي وبدأت تخاطب قلبي القلق ليطمئنّ بخطابِ الأمّ الذي يرتاح له كلّ طفلٍ عندما يُلقى على سمعِه، فاطمأننت... ذهبتُ إلى إسماعيل وتحدّثنا قليلًا عمّا نريد أن نفعله في أمريكا، عن العزلة التي يشتهيها ليغوص في عالم الرّياضيّات، عن نيويورك واللّيبراليّة الحديثة، عن أفلام ديزني التي شاهدناها، وعن الكتب العربيّة القديمة التي أردت أن أقرأها في أمريكا لأفهم وأشارك إحساس عصفورٍ من الشّرق حطّ في عشّ الغرب...

مرّت الأيّام واقترب موعد السّفر والتوتّر فيّ يزيد ويستفيض، أأريد حقًّا أن أترك بيروت ومكتباتها؟ أأريد حقًّا أن أترك أمّي ووطني؟ لطالما كنت ذلك الفتى الذي يُنتظر منه الكثير ولطالما انتظرت من نفسي الكثير، إلّا أنّني كنت أشعر في الآونة الأخيرة بأنّ عبدالرحمن لم يعد يكترث، لم تعد تلك النّار في داخله مشتعلة بل باتت نارًا خافتةً تكاد لا تحرق غصنًا من أغصان دنيا اليوم، أقوم بما عليّ أن أقوم به، فقط واجباتي، أقف على الخطّ الأحمر دون أيّ زيادةٍ أو نقصانٍ، وكأنّني باقٍ هناك، لا أفق لأرسل ناظري إليه ولا ماضٍ أعود إليه، فقط كرسيٌّ ينأى بصدره يمينًا تارةً ويسارًا تارةً أخرى وأنا الجالس أنتظر أأنتهي يمنةً أم أنتهي يسرةً؟ لذلك جاهدت نفسي، يجب عليّ أن أسافر، لأحيي عبدالرّحمن، لأحيي ما تبقّى منه، حتّى لا يزول الأثر...

حزمت حقائبي وذهبت فجرًا إلى المطار مع أمّي، حبست الدّمعة في عينيّ، في داخلي أمواجٌ من مشاعرَ هوجاء وصورة قطّتي الحزينة، أو أظنّها حزينةً لفراقنا، تعتلي شاشة هاتفي بينما أرتّل أنا آياتي المفضّلة من سورة "ق" فيختلط جمالها بجمال قطرات المطر التي أرسلتها الغيوم بكثرةٍ على سيّارتنا لتستمع كلام الله: "وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ"، أرتّلها وأستريح فأعيدها ليطمئنّ قلبي بذكر الله... وصلنا إلى المطار ثمّ دخلنا مبلّلين، جلسنا قليلًا أنا وأمّي فتفكّرت، كم مرّةً جلست معها هذه السّنة؟ منذ أن دخلت الجامعة وأنا بعيدٌ عنها، فأوّل سنةٍ جامعيّةٍ كنت في جبيل، مدينة في الشّمال، بعيدة قرابة الثلاث ساعات عن مدينتي صيدا، وما أبعدني أكثر أيضًا هو محاولة التأقلم هناك، بعيدًا عن أهلي وأصحابي ومدينتي، بعيدًا عن مساجد صيدا وأذانها وتقاليدها، فجبيل أهلها مسيحيّون وصيدا غالبيّتها مسلمون ولم أكن أظنّ أنّ هذا الاختلاف سيؤثّر عليّ لهذه الدّرجة، فما استطعت زيارة البيت إلّا مرّاتٍ قليلة لا أتذكّرها ولا أتذكّر أنّي كنت مرتاحًا بها لكثرة الدّروس وانشغالي الكبير بالعديد من الأفكار في ذلك الوقت. ها هي أمّي تمطرني نصائحها التي أعلمها، ولكنّني لا أطبّقها أو لا أهتمّ لها إلّا عندما تقولها لي أمّي، انتبه من أولاد الحرام والأكل الحرام، انتبه على طعامك فإنّي لا أريدك أن تعود إليّ شبه رجل، ركّز على دراستك وانتبه على نفسك، لا تتكلّم كثيرًا عن الدّين لكي لا

يؤذوك، ثمّ بكت فعانقتها وقلت لها إنّي توكّلت على الله، وحملت جواز السّفر ولوّحت به ولم أدر وجهي لكي لا ترى دمعي يجري دافئًا على خديّ.

الشهر الأوّل

الأيّام الأولى

استفقت في أمريكا، في السّكن الجامعيّ، أحاول أن أستوعب كلّ ما حصل. ماذا جاء بعربيٍّ ثائرٍ إلى هذه الأرض؟ مسلمٌ في أوج شبابه وتسوقه الأقدار أن يصل هنا، رغم كلّ ما في قلبه من عزّة وفي رأسه من مجد. لطالما راودني هذا السّؤال منذ حصولي على المنحة واختياري للجامعة، راودني في كلّ المراحل، بكاء أمّي لغربتي الأولى، نظرة أخي الحزينة التي اجتاحت عيناه بعدما علم أنّنا لن نشارك غرفتنا هذه الفترة، وثورة أختي الصغيرة لرحيل سندها الذي تحبّه، كما حادثة إطلاق النار التي طالت أصحابي فقط لتكلّمهم بالعربيّة. في كلّ تلك المراحل لم يفارقني هذا السّؤال، بل وقد حاولت أن أعطي بنفسي معنىً لرحلتي الأولى، ففيها سافرت وحدي أوّل مرّة، وأضعت حقائبي أول مرّة وفُتّشت في المطار أوّل مرّة بتهمة حيازتي على اسمٍ إسلاميّ وفخرٍ عربيّ، وما أحلاها وما أجملها من تهمة...

كم كان لوقوع الثلج أول أيّام الفصل من أثر كبيرعليّ، تلك المرّة الأولى التي أشهد فيها تساقط الثلوج على الرّغم من أنّي لبنانيّ، ومناطق تساقط الثلوج تبعد عن مدينتي ١٠ دقائق فقط، إنّه لأمر مضحك، وكأنّي مصريّ يعيش في الجيزة ولم يزر الأهرامات أبدًا، يراها فقط من بعيد من شرفة غرفته... أتذكّر أنّ مموّل منحتي كان يستبعد من الجامعة أن تلغي الصفوف أوّل يومٍ في الفصل بسبب تساقط الثلج، لأنّ آخر مرة قاموا بذلك كان من ٦ سنوات، ولكنّي نظرت إليه وقلت له، وجهي وجه خير، بالانكليزيّة طبعًا، فضحك وقال لي سوف نرى، ثمّ كانت عطلة جميلة وكان وجهي وجه خير...

كم كانت الأيام العشرة الأولى صعبةً عليّ، وكم كانت الأمور معقّدة، سجّل حسابًا في البنك، قم بتوقيع أوراق الضرائب بعد التعبئة، اتّصل بالخطوط الجويّة لتجد حقائبك، ثم يأتي الويكند فأرى تلاميذ الجامعة كالجراد العاري، يتسابقون إلى الحانات القريبة، فرايداي نايت وساترداي نايت، وأستغرب الحال، مقدّسةٌ هاتان اللّيلتان عند الأمريكان، فتكتمل التجربة وتجتاح عقلي صور من اختبار أميركا بكلّ ما فيه من بلاستيك وحريّة زائفة وعبوديّة للمال بل وعبوديّة للهوى، سبحان من قال: " أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ"، لطالما خشيت أن أكون ممّن يُختم على قلوبهم فيزول لديّ بعد ذلك شعوري بالذّنب والنّدم إن أخطأت، وها أنا أرى كلّ هذه الجموع سليبة العقل تسعى فقط نحو الشّهوة، ممّا زادني خشيةً، فإنّي أرى أنّ ما أحببنا أن نسمّيه نحن بالضمير، هو امتداد للفطرة التي ذكرها الله في كتابه، فزوال الضمير زوال الفطرة، واعوجاجه اعوجاجها، فيا ربّ اجعلنا دائمًا من عبادك الأوّابين إليك، فإنّك يا الله قد أحببتَ سليمان عليه السّلام لأنّه أوّاب، وأنا أحببته حبًّا شديدًا لتلك الخصلة فيه، بل ولتلك الصّفة كنتُ أرغب بتسمية ابني البكر بسليمان، فكم أتمنّى أن يكرمني الله بهذه الصفة وأن لا يحرمني إيّاها فإنّي وإن كنتُ موقنًا أن باب الله لا يُغلق لكنّي أخاف من نفسي أن تنسى أو أن تأبى الرّجوع...

كنت أذهبُ إلى حصصي كلّ يومٍ بالحافلة، أستكشف حرم الجامعة، أتأمّل الأعلام البنفسجيّة والذهبيّة، ألتقط صورًا مع تماثيل جيمز ماديسون، رابع رؤساء الولايات المتّحدة الأمريكيّة، والتي سمّيت الجامعة باسمه، وأبدأ حوارًا مع كلّ من أقابله. معظمهم ينظر إليّ بغرابة، لربّما لأنّ أنوفهم لم تلتقط رائحة شيء مثلي من قبل، ألهذه الدّرجة أنا غريب؟

“Where are you from?”

“Lebanon.”

“That’s cool, is that in Africa?

إنّه لأمر مضحك، العديد من الأمور التي سمعتها عن الشعب الأمريكي حقيقة وها أنا أعيشها الآن، هم شعب ودود ولطيف جدًّا، لكنّهم أيضًا شعب جامد، لا تستطيع أن تحدّد متى يصبح الأمريكي حقًّا صديقك، وهذه تُعتبر مشكلة كبيرة لعربيٍّ مثلي. رأيت بعض النّاس في السّكن تأكل الشيبس كلّ يوم وتقضي ١٠ ساعاتٍ من يومها على الأقل مسمّرةً على شاشة حاسوبها، تلعب أغرب الألعاب مع أصحابها فيضحكون ويصرخون من دون همّ أو مسؤولية، إنّها حالة غريبة من الحياة لي، على الرّغم من حبّي السّابق لألعاب الفيديو من فترة ليست بطويلة، إلّا أنّني وصلت لمرحلة قد أسمّيها مرحلة تقنين الذّات، تقنين الفرديّة، كنتُ شابًّا متأثّرًا بالحضارة الأمريكيّة، أحبّ البلايستيشن وأحبّ نينتندو، أشاهد المسلسلات والأفلام وأستهلك كلّ هذه الميديا بشراهة، أفتّش في تاريخها وأعلم عنها معلومات لا تضرّ ولا تنفع، ولكنّ الحياة، أو بالأخص، أظن، الحياة في بلد عربيّ في القرن الحادي والعشرين، أجبرتني على التخلّي عن جلّ هذه الهوايات، لربّما إيمانًا بأنّها تضحيةٌ لا مفرّ منها من أجل الاستفاقة وانتشال نفسي وعائلتي من المعيشة الصّعبة في هذه البلاد، إلّا أنّ الأمريكان يقدّسون فرديّتهم بطريقة جميلة، مهما كان مركز الواحد منهم، مهما كان لديه من التزامات ومسؤوليات، حتّى الطلّاب وقت الاختبارات النهائيّة، يضعون فرديّتهم وهواياتهم دائمًا كأولويّة، لدرجة تجعلني اؤمن أنّ الأمريكي سيجد وقتًا للعب الغولف وإن كان العالم يعيش دقائقه الأخيرة. ولكن يظلّ هناك أمور لا أستطيع فهمها أبدًا مهما حاولت، ها هي أكياس البيض المسلوق في والمارت، وها أنا أقف مستغربًا، لماذا لا يسلقونها هم؟

أصحابي الجدد

مرّت أيّامي الأولى وحيدًا، أذهب فقط إلى كافتيريا الجامعة محاولًا إيجاد دجاجٍ حلالٍ، أضع سمّاعةً على أذني وأغوص في فرديّتي في هذا المجتمع الفرديّ، أستمع إلى أشدّ القصائد عربيّةً ظنًّا منّي أن الغوص في بحورها سيرجعني قليلًا إلى ما أحنّ إليه، وهكذا قضيت وقتي حتّى جاء ال ٢٣ من كانون الثاني، موعد إجتماع مجموعة الطلبة المسلمين الذين تابعتهم على الانستجرام منذ قبولي في الجامعة. ذهبت متحمّسًا، دخلت الغرفة، ألقيت السّلام وقلت اسمي، أخذنا صورةً تذكاريّةً وبدأ الإجتماع، وعندما بدأ، ألقيت نظرة على الحاضرين وتفحّصتهم، وقد كنت ألبس شالي الأرجوانيّ الأصفر الذي اشتريته كتذكار، ثمّ استمعت إلى المحادثات التي غزت الغرفة، التي قارب جالسوها الثلاثين، حتّى بعثر أفكاري نداء أحد الفتيات التي طلبت منّا الصّمت لبدء الإجتماع. أصغيت إلى الإجتماع بعناية حتّى تكلّم معي شابٌّ طويلٌ باللّغة العربيّة، بعدما علم أنّني من لبنان، وقد كان اسمه عبدالله، ولكم ارتحت عندما سمعته ينطق أبجديّتي. كان عبدالله مصريًّا، ممّا زادني له حبًّا، فإنّي أحبّ مصرًا وأهلها، ومن يلومني في ذلك؟ أخذت أتكلّم مع الفتى بلهجتي المصريّة الجيّدة التي اكتسبتها من أفلامهم ومسرحيّاتهم،

فضحكنا وأكملنا الحوار حتّى أتى وقت الصّلاة. ذهبنا إلى غرفة صلاة الجامعة، وهي غرفةٌ مفتوحةٌ لكلّ من يريد أن يصلّي أو أن يقوم بعملٍ روحانيّ، ولم يعجبني هذا الأمر، ما زلت اؤمن أنّ كلّ دينٍ منفصلٌ عن غيره، أليس لكلّ واحدٍ منهم إلهٌ مختلف؟ أليس لكلٍّ منهم طقوس مختلفة؟ وجب إذن أن تكون لهم غرفٌ مختلفةٌ أيضًا، كيف أصلّي بصوتٍ عالٍ أنا والهندوسيّ في نفس المكان؟ تختلط كلماتنا فلا يخشع منّا أحد وتتشابك أوقاتنا فلا نستطيع دائمًا أن نتجمّع لنصلّي، ولذلك أعتقد أنّ الحريّة كلّ الحريّة أن يكون لكلّ دين غرفة للصّلاة والتعبّد والتعلّم، لا أن يتمّ جمعها كلّها في غرفةٍ واحدة. أنهيت الوضوء، ثمّ أكرمني الشّباب بوضعي إمامًا عليهم قائلين أنّي ضيفهم، فواجبٌ عليّ أن أكون الإمام اللّيلة عوضًا عن عبدالله. في تلك اللّحظة، تذكّرت نصيحة أمّي بالابتعاد عن الإمامة وعدم التحدّث عن الدين كي لا أُحدثَ المشاكل في أمريكا، ولكنّني، حتّى حينها، لم أوافقها على هذه النّصيحة، وإنّي وإن أعلم حرصها عليّ وحبّها إليّ ولكن هنالك بعض الأمور التي لا أستطيع أن أزيلها منّي، ومنها التحدّث عن الإسلام ومحاولة تقريب النّاس إليه. صلّيت بهم، كنت متوتّرًا للغاية، فنسيت آخر آيتين من سورة ق، كان صوتي متقطّعًا قليلًا، وكأنّه لحبّه لأمّي يأبى أن يواصل ترتيله، لكنّي أكملت التلاوة وأكملت الصلاة وكنت إمامًا لأوّل مرّة في أمريكا، ثمّ تهاطلت عليّ قبلات بعض الشّباب ومباركات البعض الآخر ورأيتهم يشدّون ثيابي ويسألوني لماذا لم تقل لنا أنّ صوتك جميل في تلاوة القرآن؟ وهكذا كسرت نصيحة أمّي وكنت إمامًا في أمريكا...

خلال أسبوع ٢٣ إلى ٢٧، كنت والإخوة نتعرّف على بعضنا البعض، كانوا يقولون لي أن أشاركهم ساعات طعامهم وأروني المزيد من الأماكن التي تقدّم طعامًا حلالًا، وأخذوني معهم إلى النادي الرّياضي في الجامعة فتعلّمت البيكل بول وكم كنت سيئًا فيها أوّل مرّة. لطالما كنت جيّدًا في الرياضات التي أستخدم فيها رجليّ وبخاصّة كرة القدم طبعًا، فأنا عربيّ من لبنان وهذه رياضة حيّنا، نحتاج كرة أو ما يشبه الكرة فقط حتّى نلعب، أتذكّر طفولتي وأخي وأبناء أخوالي، عندما كنّا نلعب قرب بيت جدّتنا، فلا نحتاج شباكًا أو معدّات أو أيّة أمرٍ معقّدٍ، فقط اجلب نفسك والعب، أمّا هنا فهناك المضرب والكرة الغريبة، كما يجب مناداة العاملين في النادي ليصلحوا لنا الشباك، قفزت قفزتين لأحفّز نفسي، لكنّ المتوقّع قد حدث، خسرت أوّل ٤ مباريات لي، وفزت فقط بإحراجٍ سخيف. في المباراة الخامسة أحسست بحركة جسدي تختلف، أصبحت أتحرك بمرونة أكبر، أتت الكرة في المكان المناسب، قفزتُ ثمّ سماش! نقطة وأداءٌ سينمائيٌّ! ناديت ممازحًا بصوت عالٍ، لقد أصبحتُ أمريكيّا الآن وألعب البيكل بول! أحرزنا في هذه المباراة ٤ نقاط والفريق الآخر أحرز أربعةً أيضًا، احتجنا نقطة واحدةً فقط للفوز، ولكنّي خسرت مباراتي الخامسة أيضًا وعدت مرهقًا إلى غرفتي...

ذلك اليوم

كنت مستمتعًا حقًّا مع أصدقاءي الجدد، ولكنّني لم أُرد أن تنحصر تجربتي في أمريكا فقط بلعب الرّياضات التي لا تنتهي هنا، فقد كانت هنالك العديد من الأسئلة التي لا تفارق عقلي وقد كنت أريد أن أستغلّ وقتي وعزلتي في البحث عن أجوبةٍ لها، وقد قرّرت، لأضيف المزيد من المعنى لرحلتي هذه، أن أتخلّص من الخصال السيئة التي تنهش فيّ، وأن أواظب على عمل الخير ولقاء القرآن ونشر رسالة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، أردتُ أن أجعل من الدّعاء الذي كنت ألقيه في دياجير اللّيالي حقيقة، بفضل الله، وبجهدٍ يناسب مكانة وعظم المهمّة، لكنّني لم أعلم من أين أبدأ وكيف أبدأ، ولكن سبحان من يكفيه صدق النوايا ليبشّر القلوب بالخير. في يوم ال ٢٧، لم يختلف شيء، أكملتُ والشّباب مسيرة الرّياضة واتّفقنا على لعب كرة القدم لأوّل مرّةٍ معًا، تعرّفت يومها على العديد من الأصدقاء، كم هي غريبةٌ هذه الكرة، تصنع إخوّةً من لا شيء رغم كلّ

الحدود والاختلافات، فقط شباب يريدون أن يلعبوا هذه الرّياضة سواء أكان اسمها كرة، جول، فوتبول أو سوكر! استغرب الجميع طبعًا كيف ألعب بهذه البراعة، فضحكت وقلت أنّي عربيّ ولا أنادي هذه الرّياضة باسم سوكر، وهذا سرّ تفوّقي، ضحك البعض، ثمّ أكملنا اللّعب. كنّا نمزح أثناء المباراة بأنّه يجب تقسيم الفريقين حسب الدّين، فالفريق الأول مسلم والآخر مسيحي، وتبادلنا بعض الطرائف الدّينيّة أثناء المباراة، ولكن عندما سمعني أحدهم أتكلّم بالعربيّة، جاء ليسألني عن الإسلام، ليسألني عن رأيي في المسيح ومريم العذراء، فقلت له أنّا نؤمن أنّ المسيح من أهمّ الأنبياء، نؤمن بمعجزة ميلاده، نؤمن بأنّ الله أعطاه القدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى، شرحت له إيماننا بوحدانيّة الله ومنطقيّة هذا الإيمان، أخبرته عن الله وعن الإسلام، وقد أصغى إليّ أيّما إصغاء، وكأنّه يتشرّب كلّ كلمةٍ بل كلّ حرفٍ يخرج من فمي! أكملنا الحوار وألقى عليّ مزيدًا من الأسئلة ثمّ اتّضح أنّه اطّلع سابقًا على الإسلام، وقد كان يقترب كلّ يومٍ من اعتناقه، ولروعة الأقدار التي ساقتني إليه، قرّر أن يسلم في هذا اليوم، وهو معي، بقربي وعلى مسمعي! سبحان الله، حقّقت باسلامه حلم حياتي، أتت به الأيّام إليّ في أوّل أسبوعين لي هنا، فأحسست حينها ولأوّل مرّة بالحلم الأمريكي، الحلم الأمريكيّ الذي تحدّثوا عنه في كلّ أفلامهم، لكنّ حلمي الأمريكيّ كان حلمًا مختلفًا عن سائر الأحلام، تحقّق في أمريكا فكان حلمًا أمريكيًّا بهويّة إسلاميّة، فأعلنت وأيقنت حينها أن رحلتي لأمريكا التي لم أكن أعرف لها معنًى كانت تستحقّ كلّ هذا الجهد لهذه اللّحظة بالذّات، والمزيد كان على الطّريق. لعبت البيكل بول بعدها، ثمّ عدت إلى غرفتي، مرهقًا، أتفكّر في هذا اليوم الطويل، فتحت الباب بهدوء، فوجدت زميلي نائمًا فلم أرغب أن أزعجه، حملت نفسي إلى حمّام الطابق، نظرت إلى المرآة الكبيرة وبكيت، بكيت بكاء شديدًا، هل أستحقّ أن يسلم شخص على يديّ رغم كلّ الأخطاء التي لديّ؟ أهذه رسالةٌ من الله لأراجع نفسي؟ مرّت كلّ حكايا حياتي القصيرة بسرعة، ذنوبي التي نسيتها ولم أنسها، أناسٌ لم يعد للقيانا سبيلٌ، عائلتي، مدرستيّ، جدّتيّ رحمهما الله، جدّي رحمهما الله، أنا، أنا وكلّ أخطاءي ومحاولاتي الفاشلة، سبحان من يعلم صدق النوايا وكلّ ما يدور في الصّدور...وقد كان صديقي في عملي الدّعويّ هذا باكستانيٌّ اسمه حسنات راو، وقد أسعدني لقاؤه، فهو أوّل من أضحكني في أمريكا، وهو من القلائل مثلي من دون جنسيّة، نعيش على فيزا، وقد كانت روحه الفكاهيّة قريبةً لروحي، ذهبنا أنا وإيّاه إلى سكن المسلمين الجدد، حملنا معنا قرآنًا مترجمًا، وحمل حسنات معه سجادّة صلاةٍ إلكترونية، كم أحببت اهتمامه بالدّعوة، كان يدفع ولا يبالي في سبيل مساعدتهم، كان يستيقظ متأخرًا دائمًا إلّا عندما يتعلّق الأمر بهؤلاء، كنّا نفرح سويّةً عندما نرى أحدًا منهم استفاد من كلامنا، أو عندما يراسلنا أحدهم، أو عندما يأتي أحدهم إلى خطبة الجمعة، فقد قمنا بمحاولة مساعدتهم قدر المستطاع، ووحّدنا جهودنا في سبيل ذلك، فنتحاور معهم صباحًا ثمّ نضحك أنا وإيّاه ليلًا تحت المطر ونتسابق معًا على السكوتر قرب المكتبة!

الشّهر الثّاني

التعليم في أمريكا

أصبحنا في شباط، بدأت نظرتي حول التعليم هنا تتبلور، وجدت أنّ الأمور تتطلّب الكثير من المتابعة، هناك عدّة أمور يجب أن أبقيها في دماغي، وكوني عبد الرحمن، لم أرغب في وجودها هناك، هناك مواضيع أهم أحقّ بتلك المساحة، لذا، فقد كنت أدرس المواد مسبقًا وأحاول أن أنهي كل ما أستطيع انهاءه، فلم يتبقّ لي، بعد الكثير من الجهد، إلّا بعض الإختبارات التي وجب عليّ الدراسة لها، ولم يكن لديّ أيّة مشكلة في ذلك، فقد شعرت أنّ الإختبارات والمواد هنا بسيطة جدًّا مقارنة

بلبنان، فهناك كنت أجاهد نفسي جهادًا شديدًا لا سيّما في صفوف علم الحاسوب، حيث كنّا نأخذ مواد ماجستير ولم نكن نعلم! يسعدني ويحزنني أن أجد هذا حقيقة، يسعدني أنّ تعليمنا أفضل ويحزنني أن ليس في وطني ما يكفي من الفرص لمكافأة هذا التفوّق، ففي لبنان فرص العمل محدودة جدًّا، والحصول عليها يقتضي "واسطة" من أحد الأصحاب والأحباب، أمّا في أمريكا فيصلك من الجامعة فرصة عمل أو تدريب مدفوعة عبر الإيميل كلّ يوم، ليست أمريكا بلاد الأحلام والأموال اللّامتناهية كما يزعم البعض، إنّما هي بلادٌ تعطيك على قدر تعبك، وإنّا نحن كعرب اليوم، عندما رأينا أنّ من يتعب عندنا لا يزداد إلّا تعبًا وشقاءً مع مرور الأيّام، ثمّ وجدنا المفسدين مرتاحي البال في مراكز القوّة والرّخاء، ظننّا أنّ هذا هو حال الحياة فحوّلنا الأمر الطّبيعيّ في أمريكا إلى جنّة لما نقاسيه نحن من حفر الظّلم السوداء التي تُبعدُ كلّ مكدٍّ مجدٍّ إلى أبعد ما يكون عن بلادنا، فلم يبقى فيها إلّا رؤوس الشرّ الذين امتهنوا التمثيل، والمساكين الذين حُرموا فرصة الرّحيل. وإنّ من الأمور التي جذبت انتباهي أيضًا بناء الجامعة موادها بحسب طبيعة شعبها وطلّابها، فالأميركيّ يفضّل الأمور العمليّة على الإختبارات، ومن الصّعب جدًّا أن يبقى تركيزه حاضرًا على شيء لأكثر من عشرين دقيقة، لذا فكان الحلّ في تقسيم نسبة المادّة على الكثير من المقوّمات، فرض منزليّ، فرض إلكترونيّ، فرض في الصّف، تسليم مقالة، تقديم مشروع، المشاركة في الصّف، إختبارات صغيرة سريعة، إختبار على الكمبيوتر، كما الإختبارات العاديّة، كلّ هذه الأمور من أجل إعطاء فرصة للطّلّاب، فلا أحد يرسب في أميركا، على الرّغم من رسوبهم في الكثير من الإختبارات الأساسيّة، إلّا أنّ التركيز كلّ التركيز يكون على ما يقدّمه الطّالب من نظرة جديدة أو أسلوبٍ جديدٍ وإن أخطأ، فالخطأ سبيل التعلّم والرّسوب سبيل التعويض...

أكثر ما أضحكني امتحان مادة الهيلث ١٠٠، حيث كان البروفسر يخبرنا قبل الامتحان أنّ الرقم القياسي لانهاء الاختبار هو ٩ دقائق وها أنا، ولم أذهب حتّى إلى حصّة واحدة، آخذ العلامة الكاملة في ست دقائق و ٣٨ ثانية. كانت هذه المادّة من أحلى المواد التي أخذتها في مسيرتي الجامعيّة، على الرّغم من أنّي لم أكن أذهب إلى الصّف لكونه على السّاعة الثّامنة صباحًا. كان من واجبات هذا الصّف الذّهاب إلى النّادي الرّياضي لمدّة 25 ساعة خلال الفصل، ولم يكن يحقّ للطالب أن يضع أكثر من 3 ساعات أسبوعيًّا في ورقة تسجيل السّاعات، وقد جعلني ذلك من روّاد النّادي الدّائمين. كان نادينا الرّياضي ثاني أكبر نادي رياضي جامعي في أميركا، يحتوي على كلّ الآلات الحديثة وتتوافر فيه سبل لعب كلّ الرّياضات التي أعرفها والتي أجهلها، تنس، بينج بونج، بادمينتون، كرة قدم، كرة سلّة، مسبح، غرف رقص، صفوف طبخ، ملاكمة وحتّى صالة كبيرة لتعلّم التسلّق! ذهبت أنا وفيتناميّ لطيف إسمه لام لتعلّم التسلّق سويّةً، وقد كان لام من أوائل الّذين تعرّفت عليهم في أميركا، وذلك عندما قامت الجامعة بجمع الطلّاب الدوليين لتعريفهم بالجوّ الجامعيّ الأمريكيّ ودعمهم في التأقلم في بيئتهم الجديدة. كان لام يعاني قليلًا مع لغته الإنكليزيّة، ولكنّه كان ذكيًّا جدًّا، لدرجة أنّه بدأ يلتقط منّي بعض الكلمات العربيّة اللّبنانيّة ك"يلّا" و"كيفك" و"بحبّك" بعد قضائنا سويًّا الوقت في غرفة التسلّق. كنّا نذهب إلى الصّف فيشرف علينا "ريان"، الذي يشبه بشكل كبير بطل فلم ديزني، "الطّريق إلى تيرابيثا"، وقد كان "ريان" مغرمًا برياضة التسلّق، واضعًا لشغفه هذا كلّ نفسه فيعلّم صفوف التسلّق صباحًا ثمّ يتدرّب ليلًا فيتسلّق أصعب المسارات لتحسين مستواه، وقد أثّر فيّ تفانيه لهذه الرّياضة، وتكريسه وقته من أجلها، فراجعتُ نفسي، هل أضع أنا نفس هذا الجهد لهوايتي التي أحبّ، ألا وهي الكتابة؟ أم أنّ قلّة الفرص في عالمنا العربيّ، أو حتّى فكرة الجهد والمشقّة في سبيل تحقيق نجاح ما قد أعيتني وأبعدتني عن قلمي؟ ولما لا نهتم أكثر بالرّياضة والكتابة وتأسيس هواياتٍ أخرى لطلّابنا داخل وخارج مسارات التعلّم، فالجامعات والمدارس هدفها ليس فقط صقل مهارات معيّنة، بل اكتشافها وبناء بيئة تساعد على تجربة هوايات جديدة لصنع أبطال في

كلّ المجالات، فهل من مستمع؟ رجعتُ إلى غرفتي، بأصابعي المشدودة من مسار التسلّق، حملتُ قلمي، وبدأتُ الكتابة، أردتُ تسجيل تجربتي التي أمرّ بها الآن لأزيدني فيها وفيّ فهمًا، أردتُ أن يحفظ الحبرُ أحاسيس الذّكريات الجديدة ويحميها من آفة التلاشي كي يتسنّى لي أن أنظر إليها لاحقًا بإذن الله...

الرّحلة الأولى: واشنطن 1

بدأت أيّامي تتشابه مجدّدًا، وبات المكان مألوفًا إليّ، يمكنني القول أنّني حقًّا استقررت في الجامعة، أدرس وأذهب إلى صفوفي، آكل مع أصدقاءي، ثمّ ألعب معهم، وأعود بعدها فأسهر مع صديقي الأردنيّ هشام اللّبدي في سكننا الجامعيّ. ولكن ما أن إقترب منّي الملل حتّى قرّرت رابطة الطّلبة المسلمين تنظيم رحلة إلى واشنطن، فغزتني حينها حماسة السّفر وما تجلب معها من فرصٍ لصُنع ما لا يُنسى وتعلّم ما لا يُقرأ وقد كنت متشوّقًا للغاية لرؤية عاصمة الولايات المتّحدة الأمريكيّة وكلّ ما فيها من معالم لم أرها إلّا في شرائط الأفلام وصفحات الكتّاب.

الطّريق من جامعتي لواشنطن ساعتين، وقد شاركني هذه الرّحلة كلٌّ من عبدالله وهشام ويوسف، صديق عبد الله المصريّ أيضًا، وقد كان شابًّا مثقّفًا متخرّجًا كمهندسٍ في السّادسة والعشرين من عمره، مولعًا بالفقه والسياسة. بدأت الرّحلة ببعض المقدّمات الضروريّة، التي قاطعها سعال عبد الله المتأثّر ببردٍ شديد، فذهبنا إلى الصيدليّة وأحضرنا له الدواء ثمّ اتّجهنا إلى واشنطن! وأثناء تسابق الأشجار في مضمار عينيّ وبينما كنت أمتّع نفسي بهذه الطّرقات الغريبة، فأستشعر أنّ هذه أوّل مرّةٍ لي على هذه الأرض، ألقى عليّ يوسف وابلًا من الأسئلة عن لبنان وعن حربها الأهليّة، فجاوبته، بلهجتي المصريّة طبعًا، وقصصت عليه حكاية جرح الوطن، بكلّ ما فيها من غرابة، بكثرة أطرافها، بغدر أصحابها وانقلابهم كلّ حينٍ على بعضهم البعض وعلى أنفسهم وعلى التراب المقدّس، قصّة 15 سنة من الإقتتال، قصّة رصاصة حوّلت الرّضع إلى شبّان، والشبّان إلى كهول، وسرقت حياة كليهما. وأثناء لعبي لدور الحكواتيّ اللّبنانيّ، على أرض أميركا، كان يوسف يسألني المزيد من الأسئلة، محاولًا أن يفهم الصّورة الكاملة للحرب، وقد كانت أسئلته دائمًا في محلّها لإتّساع ثقافته وحبّه للمعرفة، كان فتىً أقلّ ما يقال عنه فتىً مثابر، يسعى دائمًا إلى أن ينهل من بئر العلم والحكمة، فضوليٌّ تشتعل فيه روحٌ ذكّرتني بروح علماء المسلمين القدامى، وما أجملها من روح ومأ اجمله من إنسان. وفي خضمّ كلّ هذا، رأيت هشامًا يستمع أفضل الإستماع لنقاشي أنا ويوسف، وكأنّه يحاول أن يحفظ كلّ معلومةٍ تخرج من أفواهنا، وقد كان هشام قليل الحظّ من الثقافة والمعرفة، شابٌّ يحبّ الأمور العمليّة وكلّ ما يبعده عن القلم والكتاب، إلّا أنّه يحبّ الإستماع دائمًا إلى كلّ ما ينفعه، وقد زاد هذا من جمال الحوار في نظري، روح الفضول والمعرفة متمثّلةً في يوسف، وروح الإستماع واللّهفة الصّامتة متمثّلةً في هشام، بينما نزعج عبد الله العالق في حلقات سعاله المتواصلة...

البطّ في واشنطن يحيّي زوّارها، والزخارف والتماثيل في كلّ زاوية، تضفي على المدينة رونقًا خاصًّا يعود بك إلى الوراء قرنين من الزّمن. لقد وصلنا! صففنا السيّارة بعد جهدٍ جهيد، فالعثور على موقفٍ في واشنطن هو أصعب شيءٍ فيها، ومن أغلاها أيضًا، تجمّعنا والطّلبة الآخرين ثمّ بدأنا رحلة المشي في دروب العاصمة. كان الأسلوب المعماريّ في واشنطن فرنسيًّا جدّا، على الرّغم من أنّني لم أرَ فرنسا من قبل، إلّا أنّ هذا ما شعرت به. كانت الطّرقات نظيفةً جدًّا والنّاس تمتطي درّاجاتها وتأخذ حيواناتها الأليفة إلى نزهتها التي أظنّها يوميّة، تماثيل للعلماء ولرجال أمريكا الخالدين في كلّ مكان، كما البيت الأبيض، الذي كان أصغر كثيرًا ممّا توقّعت! هذه هي واشنطن الأنيقة، مدينةٌ يحلو لك أن تمشي فيها عكس قيادة السيّارة! قرّرنا كلّنا بعدها التوجّه إلى نصب المدينة التذكاريّ الشّهير، إلى تلك البقعة التي تتهافت عليها جموع النّاس والسيّاح، السيّاح الذين أصبحت أُعتبرُ واحدًا منهم الآن، وبينما نحن في طريقنا إليه، رأيت بعض الخيام على زاوية الطّريق، وظننت لسخافتي وسذاجتي وشدّة إنبهاري بواشنطن بدايةً أنّ الحرية قد وصلت بالأمريكان أن يقوموا بنصب الخيام في العاصمة من أجل التسلية والترفيه، ثمّ أخبرني صديقي الأفغانيّ أرسلان أنّ كلّ هؤلاء مشرّدون. أخذت صورةً للمنظر العجيب وأنا مندهش، لم أصدّق حينها أنّ هذا حقيقيّ، وفي واشنطن؟! لم أكن أعلم أنّه يجب عليك أن تنحت نحتًا وأن تبذل أقصى الجهود في أميركا لتحصل على سقف يأويك، وبيتٍ يحميك، أفكلّ هؤلاء حقًّا مشرّدون؟ أكملنا الطّريق، وبينما كنّا نمشي أطلّ علينا أخيرًا نصب واشنطن بطوله المهيب ورأينا الأعلام الأمريكيّة تزيّنه من كلّ زاويةٍ مرفرفةً بكلّ حريّة وبهاء فوق حشود الزوّار. أخبرت أرسلان أنّي أريد أن يلتقط لي صورةً مع ذلك النصب، صورة تظهرني وكأنّي أحمله بين إصبعيّ، فبدأنا أنا

وأرسلان بجلسةٍ تصويريّةٍ سياحيّةٍ كان نتاجها بعض الصّور الهوليوودية التي تستحقّ أن تعلّق على حائط بيتي المستقبليّ إن شاء الله ليسألني عنها أولادي وعن مغامرات أبيهم في تلك الأراضي البعيدة، كما سألت أنا عن صور أخوالي السّابقة...

بعد القيام ببعض النشاطات السياحيّة، كان يجب علينا الذّهاب إلى المركز التركيّ الإسلاميّ في واشنطن حيث عرض علينا مسؤولوه تأمين وجبة الغداء، ولكم كنت أتوق إلى الوصول إليه لشدّة جوعي وإشتياقي إلى الأكل الحلال من المطبخ المتوسّطي المشابه لطعام لبنان! وصلنا، فوجدت أطباق الكباب والأرزّ مصطفّةً على الطّاولة وأتى الشّاب التركيّ المسؤول هناك، سامي شيليك، وحيّانا جميعًا وساعدنا في التعرّف على مختلف الأماكن في المركز كغرف الصّلاة والمكتبة والحمّام، وقد كان سامي في السّابعة عشرة من عمره، يدرس في جامعة جورج واشنطن، وقد كان إمامًا للمركز، وكان أوّل تركيٍّ ألتقي به بشحمه ولحمه، هو وعائشة فتحية جمجي، أحد منظّمي رابطة الطّلبة المسلمين في جامعتي ومنظّمة رحلة واشنطن، ولكم كانت سعادتي كبيرة بلقائهم وبناء روابط في عقلي مع تركيّا لأوّل مرّة، كانوا حقًّا خيرَ ممثّلٍ لبلادهم وأعطوني فكرة إيجابيّة جدّا عنها، مزحتُ وعائشة قليلًا، قلت لها أن تقول بسم الله بالتركيّة، بعض من حسّي الفكاهيّ التافه، ضحكت، صلّيت مع سامي ثمّ غادر الجميع وعادوا أدراجهم. أمّا أنا فقد ذهبت وعبد الله، الذي كان لم يزل يعاني من سعاله القاسي، إلى بيت نافيد، الأفغانيّ الأميركيّ، وأوّل أفغاني ألتقي به في حياتي، ومعلّمي في رياضة البيكل بول. زرنا أهله، تعرّفنا عليهم وأكلنا بعضًا من الأكل الأفغانيّ الذي جهّزته أمّه، وإنّ هذا لمن أجمل الأمور في تجربتي الأميركيّة، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ، قد كان من الصّعب جدًّا عليّ أن أحسّ بشيءٍ تجاه تركيّا أو بشيءٍ تجاه أفغانستان أو باكستان أو حتى أميركا قبل هذه الرّحلة، ولكن باتت هذه الأسماء شيئًا أكبر من مجرّد خطوط وحدود على خارطة، أصبحت كومة مشاعر وبداية ذكريات وكلّ بلدٍ يمثّل مجموعة أشخاصٍ وتجارب أتذكّرها عندما يُذكر اسم المكان كلّ مرّة، وإنّي موقنٍ أنّ للبنان الآن أيضًا متّسعٌ في قلوبهم وصفائح وجدانهم. ركبنا السيّارة، عائدون إلى هاريسونبرج، أحدّق أنا وأغازل ضوء القمر بينما يشخّر عبد الله التعب في المقعد الأمامي.

حلم وقصف

مرّت أيّامي في الجامعة كسابقاتها، أذهب إلى صفّي، ثمّ إلى الكافيتيريا فأتناول الطّعام وأقوم بواجباتي الدراسيّة، ولكن في التاسع عشر من هذا الشّهر، استفقت خائفًا من كابوسٍ راودني، رأيت أنّ بعضًا من أصحابي في لبنان يغرقون وأنا بعيدٌ عنهم جدًّا، لا أقوى إلّا على الصّراخ. شعرتُ بعدها أنّي أختنق، ولأوّل مرّةٍ لم أرد أن أذهب إلى الصّف، شعرتُ باشتياقٍ إلى لبنان. اقتربت حصّة الرّياضيات، فبدأت أشعر بالذنب، لا أستطيع أن أتغيّب عن هذه المادّة، فلبست ثيابي وانطلقت إلى الجامعة. جلست في الصّف واستمعت لبعض الشّرح من معلّمتي، ولكنّي لم أكن أشعر بخير، وفجأةً قاطعت حبل أفكاري التعبة رسالة من أختي رجّت قوام هاتفي، فتحت الرّسالة فوجدت نيرانًا يتعالى لهيبها ويتكاثف دخانها خارج نافذة غرفتها، لقد ضربنا الكيان المحتلّ! حملت حقيبتي وهرعت إلى خارج الصّف، اتّصلت بالعائلة ومن ثمّ بكيت على ضعف حيلتي، في غرفة الصلاة، لمن يجيب المضطر إذا دعاه.

تلك الليلة، اجتمعت مع صديقيّ هشام وعَمر، بفتح العين، لكي لا يحزن منّي عندما يقرأ هذا الكتاب، وهو مصريٌّ قضى الثلاث سنوات الأخيرة في الجامعة، للعب الفيفا والبلياردو والترفيه عن أنفسنا، ثمّ انضم إلينا أحمد، وهو شابٌّ سودانيٌّ فارع الطّول، وحسنات إلى جلستنا في سكن عَمر. ولكنّ الخطّة لم تكمل خطواتها، خصوصًا بعد الضّربة على لبنان، وتحوّلت جلستنا بشكل غير متوقّع إلى نقاشٍ حادٍّ حول الوضع في غزّة. كنّا أنا وهشام وعمر وأحمد وحسنات جالسين في صالون الشقّة، وكلّ واحدٍ منّا محمّلٌ بثقل الأخبار والمشاهد التي نراها كلّ يوم. "إلى متى؟"، قال هشام، ولم يكن هناك جواب، كان الجو مشحونًا، والأصوات خافتة، وكأنّنا نحاول التصدّي لثقل هذا العبء الذي شعرت به قلوبنا.

بدأ عمر الحديث، وكان صوته خافتًا، مليئًا بالحذر، وكأنّه يخشى من وقع كلماته علينا. "ماذا يمكننا أن نفعل؟" سأل وهو ينظر حوله بتوتر. "نحن مجرّد طلاب... بعيدون عن أوطاننا. إذا تكلّمنا كثيرًا، من يدري ماذا قد يحدث؟" كانت كلماته مثل السهم الذي يخترق الصمت، تعبّر عن خوفٍ لم يكن يخفيه أيٌّ منّا. كان عمر ما زال يؤمن قليلًا ببعض القادة الذين كانوا يفشلون في الدفاع عن شعوبنا، وأحمد يرى أن لا سبيل للوصول إلى حلٍّ أصلًا.

لكن هشام لم يكن من النوع الذي يسكت بسبب الخوف. كان غضبه واضحًا، وجهه متوتّرٌ وعيناه تلمعان بغضبٍ مكتوم. "كيف يمكننا أن نجلس هنا نلعب الألعاب، بينما إخواننا وأخواتنا يعانون؟ هذا غير مقبول! يجب أن نفعل شيئًا!" كانت كلماته قاسية، مليئة بالإحباط الذي يشعر به كلّ من فقد القدرة على التحكّم بما يجري من حوله.

نظرتُ إلى حسنات، وكنّا ندرك أنّ علينا توجيه النقاش نحو شيءٍ أكثر إيجابيّة، شيء يمكنه أن يعيد لنا الإيمان بالأمل. قلت بصوت هادئ، لكنّه كان مليئًا بالتصميم: "علينا أن نستيقظ، هذا ليس فقط عن غزّة؛ إنّه عنّا جميعًا. لقد ابتعدنا كثيرًا عن أصولنا، عن الإسلام. إذا لم ندمج ديننا في حياتنا اليومية، كيف يمكننا أن نقف ثابتين أمام هذه المحن؟"

أومأ حسنات برأسه موافقًا، وظهرت في عينيه تلك الجديّة التي نادرًا ما أظهرها. "أمّتنا مثل الجسد الواحد"، قال بصوت عميق. "إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى. لكن لا يمكننا أن ندع هذا الألم يشلّنا. علينا أن نجد قوّتنا في إيماننا، وعلينا أن نتحرّك."

شعرت حينها بأنّني لا أستطيع البقاء صامتًا، وكأنّ كلّ تلك المشاهد المؤلمة التي رأيتها على التلفاز لأطفال غزّة كانت تغلي في داخلي، فبدأت أتحدّث بصوتٍ يهتزّ بالانفعال: "هل رأيتم الأطفال في غزّة؟ هل رأيتم كيف يعيشون تحت القصف، كيف يلعبون وسط الدمار، كيف يبحثون عن ذويهم بين الأنقاض؟ كيف يمكننا أن نغضّ الطرف عن ذلك؟ نحن نجلس هنا، بينما هم هناك يواجهون الموت في كلّ لحظة، لا نفعل شيئًا سوى الإبتعاد عن ديننا، لا نهتمّ سوى بأنفسنا، ما الذي فعلناه من أجلهم؟ أين نحن من إخواننا وأخواتنا الذين يصرخون طلبًا للمساعدة؟"

كانت كلماتي تخرج من أعماق قلبي، وكلّ كلمة كانت تصيب أرواحنا، تُشعرنا بأنّنا مقصّرون في حقّ ديننا وحقّ أمّتنا. نظرتُ إلى أعينهم، ورأيت فيها نفس الشعور، نفس الإحساس بالذنب، نفس الرغبة في أن نكون أفضل، أن نكون مسلمين بحقّ، قادرين على أن نساعد ونقف بجانب من يحتاج إلينا.

استمرّ النقاش حتّى ساعات الفجر الأولى، مضى الوقت دون أن ندرك، وفي قلب الليل تحوّلت جلستنا من لعبة بسيطة إلى حوار عميق وحسّاس حول حال أمّتنا، حول مخاوفنا وإحباطاتنا وآمالنا. كنّا جميعًا نواجه صراعاتنا الشخصيّة، لكن تلك الليلة وجدنا في بعضنا البعض ملجأً وسندًا، وشاركنا نفس الرغبة في إحداث تغيير.

عندما بدأت أشعة الشمس الأولى تتسلّل عبر الستائر، كنّا ما زلنا بعيدين عن إيجاد حلّ، لكنّنا كنّا متّحدين في عزمنا. كان العالم خارج نافذتنا هادئًا بشكلٍ غريب، في تناقض تامّ مع العاصفة التي كانت تجتاح قلوبنا. لم يكن لدينا كلّ الإجابات، لكنّنا كنّا نعرف شيئًا واحدًا على وجه اليقين: لم يعد بإمكاننا البقاء صامتين. كنّا نعلم جميعًا في تلك اللحظة أنّ علينا أن نصبح مسلمين أفضل، أن نحسّن من أنفسنا لكي نُمثّل هذا الدين بشكلٍ أفضل، ولكي نتمكّن من مساعدة إخواننا وأخواتنا بكلّ ما نستطيع.

رحلة واشنطن 2

حان الوقت لرحلتي الثانية إلى واشنطن. كانت لديّ رغبة عارمة في اكتشاف المزيد من هذه المدينة التي سمعت عنها الكثير من القصص. قضيت اللّيلة في سكن صديقي الأفغاني سّيد، الذي سيرافقني في رحلتي، وقد كانت غرفته تعجّ برائحة الكاجو المحمص الذي كنا نأكله بينما نتحدث عن الحياة، عن الصعوبات التي مررنا بها وعن الأحلام التي نريد تحقيقها. كان سيد من الأشخاص الذين أجد معهم راحة غير متوقعة، ربما لأنّ حديثنا كان يتجاوز السطحيات ليغوص في أعماق النفس، ولأنّه شخص من النّوع الصّادق جدًّا، ربّما حتّى زيادة عن اللّزوم.

بعد أن انتهينا من تناول الكاجو، شعرت بالحاجة إلى استخدام الحمام. دخلت إلى حمام السكن، وما إن أغلقت الباب حتى بدأت ألاحظ التفاصيل التي أدهشتني بشكل غير مريح. كانت الكبائن قصيرة جدًا، بشكل يجعلك تشعر بالانكشاف حتى وأنت تحاول الحفاظ على خصوصيتك. كانت هناك شعيرات متناثرة في كل مكان، وبينما كنت أتنقّل بين الكبائن، لفت انتباهي مشهد غريب: فتاة كانت تتقيأ على أرضية الحمام بسبب الإفراط في شرب الكحول، مشهد جسّد لي تناقضات الحياة الجامعية هنا. وجدت نفسي أفكر في الفرق الكبير بين ما رأيته في هذا الحمام وما كنت أعتبره معتادًا في بيئتي، وتساءلت كيف يمكن للناس أن يتعايشوا مع هذا النوع من الفوضى وكأنه جزء طبيعي من يومهم.

في الصباح التّالي، استيقظنا مبكرًا، رغم أن النوم كان متقطعًا، ربما بسبب أفكاري التي لم تتركني لحظة. كانت سيارة ناويد، الذي كان كريماً بما يكفي ليترك لنا سيارته، تنتظرنا أسفل المبنى. كانت الشمس تشرق ببطء، تضفي على الشوارع صمتًا يحمل في طياته وعودًا بيوم مليء بالمغامرات.

بينما كنا في الطريق إلى واشنطن، قام سيد بتشغيل أغنية فارسية لم أسمعها من قبل، "نگران منی" لمغني إيراني شهير يدعى مرتضى پاشائي. كانت الأغنية تحمل في طياتها شيئًا غريبًا، شعرت وكأنّ صوت المغني يخاطب شيئًا في داخلي، كأنّها مرآة لمشاعر غير واضحة في نفسي. لم أفهم الكلمات، ولكن الصوت كان يتغلغل في روحي. بدأت أكررها طوال الطريق، محاولاً تخيّل معانيها، وكأنني أحاول فكّ شيفرة مشاعر مغلقة. كان الأمر أشبه بتجربة موسيقية مختلفة تمامًا، حيث كنت أستمع إلى أغنية لا أفهم لغتها ولكنني كنت أشعر بها بعمق. كان الصوت يشعرني بالقرب من شيء بعيد، شيء لا أستطيع لمسه ولكنني أحسّه بكل جوارحي...

عندما وصلنا إلى واشنطن، كانت المدينة تفتح أبوابها لنا. ذهبنا أولًا إلى نصب لنكولن التذكاري، ثم إلى نصب الحرب العالمية الثانية. كنّا نسير بين تلك التماثيل والنقوش التي تحمل في طياتها تاريخ هذه البلاد، وأخذنا بعض الصور الأيقونية، تلك الصّور التي تشعرك بأنك يمكنك أن تري أولادك شيئًا قيّمًا لاحقًا إن شاء الله. بعد تلك الجولة، شعرنا بالجوع، فتوجّهنا إلى مطعم أفغاني حلال. كانت رائحة الطعام تملأ المكان، وكأنها دعوة لنا لتذوق كل ما هو جديد. جلسنا وتناولنا بعض الأطباق الأفغانية الشهية، ولم أتمكن من إخفاء فرحتي عندما وجدت عيران لبناني بزجاجة تحمل شجرة الأرز. كان ذلك التفصيل الصغير يكفي ليعيدني للحظات إلى وطني، إلى لبنان، شعرت بسعادة غامرة لأنني أعيش تجربة ثقافيّة غنية ولأنّني وأخيرًا استطعت أن آكل بعض اللّحم!

تفكّرت حول وصول دوري في العائلة للذّهاب إلى أمريكا، فكلّ أخوالي أتوا إلى هنا قبلي وكانوا كلّما زارونا في لبنان حملوا لنا قصصًا فوقها قصص وحكايات ما أجملها من حكايات، وكنت برأسي ومخيّلة الكاتب خاصّتي أرسم صورًا عن مغامراتهم، عن نيويورك والأماكن التي زاروها، كيف تبدو هذه الأماكن؟ كانوا يحدّثوننا عن أشخاصٍ قابلوهم هناك، من مختلف الأعراق والجنسيات، وكنت أرسم في مخيّلتي وجه كلّ واحد منهم وأتخيّل أنّي أتكلّم معه، كانوا بالنسبة لي مثل شخصيّات من قصّة أو رواية ما، وطفولتي البريئة كانت تستمتع بذلك أيّما استمتاع. ها أنا اليوم أحلّ محلّهم وأرسم بعبدالرحمنيّتي مغامرتي الخاصّة، عسى الله أن يجعلها من أحلى المغامرات وأنفعها، وأن أصبح بعدها وفيها انسانًا جديدًا ورجلًا أفضل قادرًا على أن يحمل مجد هذا الإسم على منكبيّ. مجد هذا الإسم؟ أحبُّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، قصّة تسميتي جميلة أيضًا، فأبي حلم وأمّي حاملٌ بي أنّ ملاكًا قد أتاه وأمره أن يعطيني هذا الإسم، عبد الرحمن، عبدالرحمن... على اسم عبد الرحمن بن عوف الصحابيّ الجليل وعلى اسم ابن خلدون وعلى اسم عبد الرحمن الداخل فاتح الأندلس وعلى اسم خال أمّي! خال أمّي الذي ذهب إلى جورجتاون ودرس هناك وتزوّج ثمّ أتى إلى لبنان ليملأ عقلي الصغير بقصص سحريّة عن تلك الجامعة، وها أنا، هنا؟ في جورجتاون؟ قد ذهبت إليها وصلّيت بمسجدها، تنزّهت بحرمها، وتكلّمت مع أناسها. كنت أتخيّل خال أمّي يمشي قرب المبنى في الحديقة الأساسية، أراه في عزّ شبابه، كما كان عندما كنت طفلًا صغيرًا حالمًا، كان طويلًا للغاية وشعره أطول وابتسامته أرقى وأجمل، رأيته هناك، ورأيت مرور الأيّام وتبدّل الأحوال، فضحكت لأخذ الصورة ثمّ بكيت. كم هو ثقيل أن أحمل اسم عبد الرحمن.

انتهت رحلتنا وعدنا إلى هاريسونبرج وبقيت الكلمات الفارسية عالقة في أذني...

الشّهر الثّالث

مقالات

مررتُ اليوم بالمقالات التي كتبتها خلال تحضيرات قدومي إلى هنا، فقد سألوني في طلبي كطالب مبتعث: لماذا تريد أن تأتي إلى أمريكا؟ لم أفكّر كثيرًا حينها بالإجابة، فقد كان الخوف يستحوذ على الجزء الأكبر من عقلي، ورغم أنّي كنت قد نسيت الإجابة التي كتبتها على عجل، إلّا أنّني أستطيع القول الآن وبكلّ فخرٍ أنّها إجابةٌ جميلة ترضيني كعبد الرّحمن. كتبت في تلك المقالة أنّني أريد أن أذهب لأصنع من هاريسونبرج مكانًا دافئًا في مخيّلتي، أن أجعلها مكانًا لذكريات شبابي، أن أتعرّف على أناسٍ سأودّعهم بعد انتهاء الفصل، ولكنّنا حتمًا سنتقابل في سفراتنا المستقبليّة، في أماكن أخرى إن شاء الله، كتبتُ أنّي أريد أن أحمل قصصًا في قلبي لأذهب وأخبرها لأمّي وأختي، أن أكون جالسًا في صالوننا الذي كدت أنساه، فأتذكّر طرفةً في وقتي هنا أو حادثةً جميلة أو مؤلمةً أحكيها لهم فأنقل لهم التجارب الكثيرة التي عشتها. يمكنني القول والحمد لله أنّني حقّقت ذلك، فهاريسونبرج، على الرّغم من علاقتي المعقّدة معها لكونها تجربة غربتي الأولى ومركز إختباراتي الأصعب، بتّ أشعر

بارتياحٍ في رحابها، فليس فيها ما يقلق النّفس وليس فيها من العادات الغريبة ما يبعدني عنها كلّ البعد، وفيها من النّاس الأعزّاء من أحبّهم وأحترمهم، لقد صرت أنا وهاريسونبرج أصدقاء، وإنّي واثق بأن شوقي لها سيزداد عندما أغادر.

رحلة التزلّج

كانت ليلة هادئة في الحرم الجامعي، حيث اجتمعنا معًا في الكافتيريا بعد يوم طويل من الدراسة. لم يكن لدينا أي خطط مسبقة، وكنا جميعًا بحاجة إلى شيء يخرجنا من روتين الحياة اليومية. جلسنا نتحدث عن أفكار مختلفة، حتى اقترحت بشكل عفوي: "لماذا لا نذهب للتزلج على الجليد؟" الفكرة جذبت انتباهنا جميعًا، وكان الحماس واضحًا على وجوهنا. لم نتردد طويلًا، واتفقنا على الذهاب إلى ماسانوتن، وهو منتجع تزلج، لتجربة شيء جديد ومختلف.

كانت المجموعة تضم خليطًا مميزًا من الشخصيات. عائشة، صديقتنا التركية المفعمة بالحيوية، دائمًا ما تأتي بأفكار جديدة ونافعة. هانا، صديقتي اليمنية الأمريكية، كانت دائمًا مصدرًا للإلهام بروحها القوية وحبها للحياة. ديار، صديقي الكردي، مجنون يتمتّع بروح الدّعابة، بينما كان لوغان، الأمريكي من أصل غواتيمالي، دائمًا ما يثير فضولي بتجربته الفريدة مع الأديان، حيث كان يمارس تقاليد دينيّة مختلفة رغم كونه ملحدًا.

وعلى الرغم من تنوع خلفياتنا واختلافاتنا الثقافيّة، وجدنا في هذا الإقتراح فرصة لتجربة شيء جديد معًا. انطلقنا في سيارتنا متجهين إلى ماسانوتن، ونحن نمزح ونتبادل القصص. على الطّريق، وبينما كنّا نتحدّث عن مغامرتنا المقبلة، لفت انتباهي حركة على جانب الطريق. كانت تلك اللحظة التي رأيت فيها غزالًا لأول مرة في حياتي. كان الظّلام يلفّ المكان، ممّا أضفى على المشهد جوًّا من الغموض والسحر. كانت تلك اللحظة سريعة، لكنها تركت في نفسي أثرًا عميقًا...

عندما وصلنا إلى حلبة التزلج، كانت الحماسة في أوجّها. لكن سرعان ما تحوّل حماسي إلى نوع من التحدي الشخصي. لم أكن أتوقع أن يكون التزلج على الجليد بهذا التعقيد. بينما كانت عائشة وهانا تتزلجان برشاقة، وكأنهما ولدتا على الجليد، وجدت نفسي أكافح للحفاظ على توازني. كانت الحلبة تبدو وكأنها تحاول أن تسقطني في كل خطوة، بينما كانت عائشة وهانا تتحركان بسهولة تامة، تضحكان وكأنّهما في رقصة هادئة.

بدأت أشعر بالإحباط، لكنني لم أكن مستعدًا للاستسلام. مع مرور الوقت، بدأت ألتقط الأساسيات وشيئًا فشيئًا، بدأت أشعر بالراحة على الجليد. عندما شعرت بأنني أخيرًا أستطيع التزلج دون سقوط، طلبت من ديار أن يصوّرني وأنا أتزلج عبر الحلبة لأرسل الفيديو لأمّي. كانت الأمور تسير على ما يرام، وكنت أشعر بالفخر الصغير بنفسي. ولكن، في اللّحظة التي كنت أستعدّ فيها للانتهاء بحركة مميزة، فقدت توازني وسقطت بشكل مضحك على الجليد. ضحك الجميع بصوت عالٍ، ولم أتمالك نفسي من الضحك أيضًا.

بعد أن انتهينا من التزلج، وقفنا معًا لالتقاط صورة جماعيّة. كان كلّ واحد منّا يحمل ابتسامة عريضة، ليس فقط بسبب المتعة التي عشناها، ولكن بسبب الشعور الجديد الذي بدأ يتكوّن بيننا. في تلك اللحظة، أدركنا أننا لم نكن مجرد مجموعة من الأصدقاء الذين اجتمعوا للتسلية، بل كنّا نبدأ في بناء رابط أقوى، رابط مبني على التجارب المشتركة والذكريات التي ستبقى معنا إلى الأبد. كانت تلك اللّحظة هي بداية تشكيل صداقة أكثر عمقًا، صداقة لا تعتمد فقط على المواقف السعيدة، بل على كلّ لحظة عشناها معًا، حتى لو كانت مليئة بالضحك على سقطاتي على الجليد.

بهاء وبيته

كان لقائي الأول مع بهاء العراقيّ في حلقة القرآن الأسبوعيّة التي كنّا نقيمها كل أربعاء. كان بهاء شابًا هادئًا، يحمل في صوته هدوءًا يجذبك للاستماع، وفي عينيه بريق يعكس حبًا عميقًا للدّين. كنّا نتجمّع كل أسبوع لنتدارس آيات القرآن، ونغوص في معانيها، نبحث عن السّكينة والرّاحة في كلمات الله. ومع مرور الوقت، بدأنا نتعرف أكثر على بعضنا البعض، حتى أصبحت تلك اللقاءات جزءًا أساسيًا من حياتنا الجامعية.

لم يقتصر الأمر على اللقاءات الأسبوعية، بل بدأنا نلتقي أيضًا خلال مباريات كرة القدم. كانت هذه اللقاءات تحمل نكهة مختلفة، حيث يتحول بهاء من ذلك الشاب الهادئ في حلقة القرآن إلى لاعب حماسي على أرض الملعب. كانت تلك اللحظات التي نقضيها معًا تضيف إلى صداقتنا طبقات جديدة من التفاهم والإرتباط.

وذات يوم، قرر بهاء دعوة الجميع إلى منزله لقضاء ليلة مميزة حول النار. لم أكن أدرك حينها أن هذه الدعوة ستتحوّل إلى واحدة من أجمل الذكريات التي ستُحفر في قلبي. تجمّعنا جميعًا في منزله، وجوه مألوفة مليئة بالحماس والابتسامات. بدأنا الليلة بلعب البيلياردو،حيث فزت طبعًا، ثمّ انتقلنا إلى الفناء الخلفي، حيث لعبنا كرة القدم، وتحوّلت اللعبة إلى معركة مليئة بالضحك والصيحات. بعد أن تعبنا من اللعب، جمعنا بهاء حول مائدة عشاءٍ عامرة بأشهى الأطباق العراقية. كان الطعام لذيذًا بشكل لا يوصف، كلّ لقمة تحمل معها نكهة تذكّرني بأمّي وتزيدني شوقًا إليها. وبعد العشاء، جلسنا حول النار، وبدأت القصص تتوالى. قصص مجنونة ومضحكة، جعلتنا ننفجر ضحكًا حتى لم تعد لدينا قوة للاستمرار.

في تلك الليلة، علّمني أرسلان وشعيب، الصديقان الأفغانيان، بعض الكلمات من لغتهم الأم، وأعطوني نافذة صغيرة إلى ثقافة لم أكن أعرف عنها الكثير. أمّا هشام، الصّديق اللبناني الطرابلسي، فقد شاركني قصصًا عن لبنان، قصصًا تحمل في طياتها مزيجًا من الحنين والكوميديا، أشياء لا يفهمها إلّا نحن.

وأثناء جلوسنا حول النار، بدأت أشعر بأن هذه اللحظات ليست مجرد لحظات عاديّة. لقد كانت ليلة مليئة بالضحك والحب، لكنّها كانت أيضًا ليلة تعمّقت فيها صداقاتنا، وبدأت أرى في هؤلاء الأصدقاء عائلتي الثانية. شعرت بأنّنا نعيش لحظات نادرة، لحظات تغذّي الروح وتعيد لها الإيمان بالصداقة والأخوّة. كلّما فكرت في تلك اللّيلة، شعرت بالإمتنان لأنّ الحياة جمعتني بأشخاص كهؤلاء، أشخاص يحملون في قلوبهم النقاء والإخلاص، ويعرفون كيف يصنعون من اللحظات البسيطة ذكريات تدوم إلى الأبد.

إلى الجبال

كان الوقت قد حان لرحلة التطوع الإلزاميّة، تلك التي أخذتني إلى جبال السموكي العظيمة لمدّة أسبوع كامل من التخييم. لم أكن سعيدًا بالفكرة في البداية؛ فقد كنت قد بدأت للتو في تكوين صداقات في هاريسونبرج، ولم أرغب في مغادرتها، خصوصًا لقضاء عطلة الربيع مع مجموعة من الغرباء. لم أخيّم من قبل، وكانت فكرة قضاء سبعة أيام مع أشخاص لا أعرفهم، بينما يبدأ رمضان في اليوم التالي، تثير في نفسي مشاعر القلق والارتباك.

استيقظت في الصباح الباكر، وقمت بجمع أغراضي الثقيلة في حقيبة شعرت وكأنها تحمل معي كل توتّري وقلقي. عندما وصلت إلى الحافلة التي كانت تنتظرنا، وجدت نفسي محاطًا بمجموعة من الزملاء الأمريكيّين، كل واحد منهم كان يحمل خلفيّة وقصة مختلفة. كانت إيلينا، قائدة الرحلة وسائقتنا، أمريكيّة من أصول إيطالية وتدرس الجغرافيا، تحمل في شخصيتها روح القيادة والاهتمام بالتفاصيل. بجانبها كانت آدا، قائدة الرحلة الثانية، نصف بورتوريكية، تحمل دائمًا معها طاقة إيجابية وشغفًا بالمغامرة. ماريسا، الفتاة الجزرية، كانت مليئة بالحيوية، يبدو عليها أنّها تعيش حياتها وكأنّها في مغامرة مستمرة. ليندسي، رامية السهام الأمريكية، كانت تثير إعجابي بمهاراتها وقدرتها على التركيز والدقّة. إميلي، ذات الجذور الألمانية، كانت بارعة في الخطابة، تتمتع بقدرة على إشراك الجميع في محادثات مشوّقة. أليسا، الأكبر سنًّا بيننا والمسؤولة عن الإرشاد المهني في الجامعة، كانت دائمًا تقدّم لنا نصائح حكيمة وتجارب حياتية غنيّة. سام دان، بملامحها التي تشبه روبن ويليامز، كانت تضفي روح الدعابة والمرح على المجموعة، بينما كانت سام رومانو من نيو جيرسي وماثيو، الشاب الأشقر ذو الجذور الإيرلندية، يضيفان جوًا من الصداقة والرّاحة لي شخصيًّا.

كنت صامتًا طوال الوقت في الحافلة، غارقًا في أفكاري ومشاعري المتضاربة. كنت أعلم أنني سأواجه تحديات جسديّة، وأنني سأكون في مكان لا يتوفّر فيه الطعام الحلال، وكلما فكرت في ذلك، زاد قلقي من أن تعرف والدتي وتغضب، فلم أخبرها طبعًا عن رحلة التخييم هذه، لأنّي خشيت أنّها ستمنعني من السّفر أصلًا إلى أميركا إن علمت بذلك.

في اليوم الأوّل، وصلنا إلى الموقع بعد رحلة طويلة، وقرّرنا أن نستريح قليلاً من تعب الطّريق. قضينا وقتنا في إعداد الخيام وتجهيز معدّاتنا، فتعلّمت نصب الخيام، وكانت كلّ خطوة تحمل معها شعورًا جديدًا وأمورًا جديدة أتعلّمها.

بعد ذلك، قرّرنا زيارة مدينة آشفيل في نورث كارولينا للترفيه عن أنفسنا واستكشاف الولاية. كانت المدينة ساحرة، بجوّها الذي يمزج بين الفنون الرّاقية والتاريخ، كانت المدينة توحي إليّ بأنّها قطعة من أوروبا بأناسها وأبنيتها وحتّى كلابها، لم أشعر أنّي في أميركا التي صوّرتها لنا الأفلام. زرنا متحف الفن الخاص بالمدينة، وتجوّلنا بين المباني التي كانت تشبه العمارة الفرنسية، وبينما كنّا نخوض كل هذه التجارب، شعرت بأنّني أقترب من ماريسا، الفتاة الجزرية. بدأت بيننا محادثات صغيرة عن الحياة، عن البحر الذي كان جزءًا من حياتها وعن لبنان الذي كنت أحنّ إليه. كنت أشعر بأن هناك شيئًا يربط بيننا، رغم اختلاف خلفياتنا، وكأنّنا نتشارك في تجربة خاصة رغم كلّ الصعوبات التي تتخبّط في داخلي.

عندما حلّ اللّيل، اجتمعنا حول النار، فأحضرت إيلينا لي قطعة من المارشمالو الحلال وقالت، حان الوقت لتصنع السموور الخاصّة بك! كانت المرّة الأولى التي أجرب فيها السموورز، تلك الحلوى التي سمعت عنها كثيرًا في الأفلام، وكنت متحمسًا لتجربتها. كانت لذيذة بشكل يفوق توقعاتي، وتحوّلت من مجرد حلوى أراها وأسمع عنها في أفلام هوليوود إلى تجربة جديدة، تجربة انفتاح على ثقافة مختلفة، فقد أكلت السموور هنا مع الأمريكان، في هذه الجبال العظيمة.

في اليوم الثاني، استيقظنا على منظر سحري لم أتوقّعه أبدًا. قطيع من الأيائل يحيط بخيامنا، كانت قرونها ضخمة، وأصواتها غريبة بعض الشيء، لكنها أضفت جوًّا من السّحر على صباحنا الأوّل. كنت أشعر بأنني أعيش في فيلم من أفلام الطبيعة، في فيلم وثائقي لناشيونال جيوجرافيك، وأنّ هذه اللحظة كانت من تلك اللحظات النّادرة التي ستبقى محفورة في ذاكرتي.

كان هذا اليوم أيضًا أوّل أيّام رمضان، وقد شعرت حينها بمزيج من الغربة والشوق إلى عائلتي. أين الصّائمون؟ أين خطوات أمّي في المطبخ؟ أين كلمات القرآن تُرفع في ساحات مدينتي؟ لا شيء من هذا ولا أثر له إلّا في دخائل نفسي ومنعرجات عقلي. بعد الاستعدادات، انطلقنا إلى موقع آخر على بعد ثلاث ساعات. كنت أشعر بالتعب، فقررت أن أنام قليلاً لأحافظ على طاقتي، بينما استمرّ الآخرون في التحدّث والتعرّف على بعضهم البعض. كنت أسمع أصواتهم وضحكاتهم، لكنّني كنت غارقًا في نومي الخفيف وأفكاري الثقيلة.

عندما وصلنا إلى الموقع الجديد، قام الرينجر بشرح المهام التي تنتظرنا. كانت مهمتي هي استخدام منفاخ الأوراق لتنظيف المنطقة. لم أكن قد جرّبت شيئًا كهذا من قبل، لكنني سرعان ما وجدت نفسي مستمتعًا، حيث شعرت وكأنني بطل في مشهد من فيلم "غوستبسترز"! وبينما كان الضجيج يملأ المكان، بدأت أتمتم بآيات القرآن، محاولة منّي أن أعيش أجواء رمضان، ولو في داخلي، أردت الإتّصال بشيء يمكنه أن يهدّئ من شعور الغربة الذي كان يغلّفني. ولكنّ ذلك لم ينجح، فقد حان وقت الإفطار، وجلست بعيدًا عن الجميع، ثمّ تناولت جزرة وقطعة خس، وكان ذلك المتوفّر. لم أتمكّن حينها من منع دموعي من التساقط. كان شعورًا غريبًا وصعبًا أن أكون في رمضان بعيدًا عن كل ما يميّز هذا الشهر. لم يكن هناك أذان يعلن الإفطار، ولا

عائلة تجتمع حول مائدة الطّعام، ولا دعاء جماعي يسبق بداية الأكل، ولا صلاة الجماعة في المسجد. شعرت بأنني غريب هنا، لا يفهمني أحد سوى تلك الأشجار الصّامتة والنّجوم المؤنسة التي تسبّح مثلي لخالقها. كان الإحساس بالعزلة قويًّا، لكن في نفس الوقت، وفي هدأة اللّيالي المقدّسة، أدركت أنّ هذه التجربة ستجعلني أقوى، وأنني سأعود منها بشيء أكبر من مجرد الذّكريات، سأعود بفهم أعمق لذاتي وإيماني...

مع مرور الأيام في رحلتنا التطوعية في جبال السموكي العظيمة، بدأت أواصر الصداقة تنسج بيننا بشكل أعمق مما كنت أتوقع. كلّ يومٍ كنّا نخرج معًا للعمل على تنظيف مسارات المشي الجبليّة، وكان العمل الجسدي الشاق هو الرابط الذي يجمعنا. في البداية كنّا نعمل بصمت، كلّ واحدٍ منآ غارق في أفكاره، لكن سرعان ما بدأت النكات الصغيرة تتسلل إلى محادثاتنا، وتحولت تلك النكات إلى ضحكات تشاركية تجمع بيننا، وتضفي روحًا من المرح وسط تعب العمل، كنّا نغنّي ونضرب الأرض بالرّفش والمعول وكأنّنا أقزام سنو وايت السّبعة...

بدأ زملائي يقتربون مني بفضول لمعرفة المزيد عن ديني وثقافتي. كنت أرى في أعينهم الرغبة في الفهم، والرغبة في تعلّم شيء جديد. كانوا يسألونني عن الإسلام، عن الصيام والصلاة، عن القيم التي أؤمن بها، وكان من دواعي سروري أن أشرح لهم. وجدت نفسي أروي لهم قصصًا من القرآن، وأتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف تشكلت هذه القيم في حياتي. كان من الجميل أن أرى الاهتمام والتقدير في نظراتهم، إحدى اللّحظات التي تركت فيّ أثرًا عميقًا كانت عندما علّمتهم كيفيّة الصلاة، وقفوا بجانبي، وبدأت أشرح لهم خطواتها، من الوضوء إلى الركوع والسجود. كانوا يتابعون بحذر واحترام، وكان ذلك يشعرني بالفخر لأنني أشارك جزءًا من حياتي معهم.

في إحدى اللّيالي، بعد يوم طويل من العمل، جلسنا حول النار، وكان الجو مشحونًا بتلك اللحظة من الصمت التي تسبق الحديث العميق. ماثيو، الشاب الأمريكي ذو الجذور الإيرلندية، كان يجلس بجواري في الخيمة. بدأ يتحدث بصوت منخفض، وكأنّه يخشى أن يكسر سحر اللّيل. تحدث عن حياته الشخصية، عن التحديات التي واجهها، عن العلاقات التي مرّت في حياته وتركته يشعر أحيانًا بالوحدة والضياع. كانت كلماته صادقة بشكل مؤلم، وأدركت في تلك اللحظة أن هذا الشاب الذي يبدو قويًا ومفعمًا بالحياة كان يحمل في داخله أعباء لا يراها أحد. في وقت لاحق من تلك الليلة، تحدثّت معي أليسا، عن حياتها الزوجية وحبّها. قصتها كانت مليئة بالتفاصيل الدافئة عن الحب والتحديّات التي واجهتها في زواجها، وعن الصبر الذي تطّلبه بناء علاقة قوية مع شريك حياتها. كانت تشارك هذه التفاصيل وكأنّها تحاول أن تمنحني جزءًا من حكمتها، شيء قد أحتاج إليه يومًا ما.

في اليوم التالي، كانت رحلتنا تأخذنا إلى عمق التاريخ، إلى قرية الشيروكي، والشيروكي هم من القبائل القليلة النّاجية من الأميركيين الأصليين،ولهم حكومة خاصّة داخل الولايات المتّحدة. كان الجميع يشعر بحماس لاكتشاف المزيد عن هذا الشعب الذي عاش في جبال السموكي لقرون طويلة، محاطًا بالطبيعة التي كانت جزءًا لا يتجزأ من هويته. بينما كنا نسير نحو القرية، كنت أشعر بأننا على وشك الدّخول في رحلة عبر الزمن، حيث ستتجلى أمامنا قصص عن الصمود والهوية، قصص حُفرت في ذاكرة هذه الأرض.

عند دخولنا القرية، وجدنا أنفسنا محاطين بعالم مختلف، عالم يحمل في طيّاته عبق الماضي. كانت البيوت التقليدية وتماثيل الحيوانات المتناثرة بين الأشجار تمنح المكان سحرًا خاصًا. ذهبنا في جولة داخل المتاحف التي تحتفظ بآثار الشيروكيون ومقتنياتهم، وكان لكلّ قطعة هناك قصّة تحكي عن حياة شعب قاوم الصّعاب وحافظ على ثقافته وتراثه. كانت تلك المقتنيات تروي تاريخ الشيروكيون منذ ما قبل الاستعمار الأوروبي، وكيف كانت حياتهم قبل أن تهبّ رياح التغيير العنيفة عليهم.

إحدى اللّحظات التي لم أنسها كانت عندما وصلنا إلى مكتبة صغيرة داخل القرية، مكتبة كانت تحمل اسمًا غريبًا ومثيرًا للإهتمام: "أوراق الكلام." في البداية، لم أكن أفهم سبب اختيار هذا الإسم، لكن سرعان ما بدأت الأمور تتضح لي. فتحت أحد كتب المكتبة، فأخذتني صفحاته إلى زمن كان الشيروكيون فيه يراقبون الأوروبيين وهم يتبادلون الرسائل والوثائق. لم يكن الشيروكيون حينها يعرفون الكتابة أو القراءة، فكانوا ينظرون إلى تلك الأوراق بعين الدهشة. كيف يمكن أن تحتوي ورقة صغيرة على كلمات تحمل معاني وتفهمها الأطراف المختلفة؟ بالنسبة لهم، كانت الأوراق تبدو كأنّها "أوراق تتحدث"، تنقل الأفكار والأوامر عبر مسافات طويلة وكأنّها تملك روحًا خاصّة بها. كانت هذه الأوراق بالنسبة للشيروكيون شيئًا سحريًا، ومن هنا جاءت تسمية المكتبة "أوراق الكلام"، تكريمًا لتلك الفكرة التي كانت بالنسبة لهم نافذة إلى عالم آخر.

بينما كنا نستكشف المكتبة، بدأت أستوعب كيف كان ذلك الفهم جزءًا من أسطورة أكبر لدى الشيروكيون، أسطورة تعكس احترامهم العميق للطّبيعة ولكل شيء تحمله من معاني. كانت الأوراق المتساقطة من الأشجار تحمل رسائل من الأرواح، رسائل تتحدّث بلغة خاصّة بها، لغة لا يفهمها سوى أولئك الذين يصغون بقلوبهم. بالنسبة للشيروكيون، كانت الأوراق المتحدثة جزءًا من عالم حي، عالم يتواصل معهم بطريقته الخاصة.

في نهاية جولتنا، جلسنا معًا نتحدّث عن تاريخ الشيروكيون وكيف تعرّضوا للإبادة والتشريد. كان الجو مشحونًا بالمشاعر، وكانت كلمات المرشد تحمل في طيّاتها حزنًا عميقًا على ما حدث لأجداده. بينما كان يتحدث عن "درب الدموع"، ذلك الطريق المأساوي الذي اضطر فيه الشيروكيون لترك أراضيهم والسير لمسافات طويلة نحو الغرب، شعرت بشيء يخنقني. كان الجميع يشعر بالذنب والندم تجاه هذا التاريخ المؤلم، فقد كانوا يدركون أن ما حدث للشيروكيون هو جزء من تاريخهم المشترك، تاريخ لم يكن للأسف مشرقًا. في تلك اللّحظة، شعرت بأنني لا أستطيع البقاء صامتًا. أخبرتهم أنّ نفس الشيء يحدث اليوم في فلسطين، حيث يُجبر الناس على ترك منازلهم وأراضيهم، ويُحرمون من حقوقهم. كنت أرى الصّدمة في أعينهم، وأشعر بالألم في قلبي. لم أتمكن من منع الدموع من التساقط، ولم أكن الوحيد. كانت دموعي دموع حق، وكانت كلماتي كلمات حق، لكم كنت أخاف في أيّامي السّابقة من مثل هذه المواقف، كنت أقول، أإذا أتاني موقف كهذا، أحقًّا ينطق فمي ويدافع عن الحقّ؟ أم أنّني أصمت ولا تتحرّك شفتاي دفاعًا عمّا أؤمن به، كنت أخاف من النفاق، أخاف من الذلّ، أخاف أن لا يكون لساني مستحقًّا لمجد الحقّ وأنّ قلبي لا يتّسع لعزّته، ولكنّني وجدت أنّ في مثل هذه المواقف، يرفض قلبي السّكوت وينادي بأعلى صوته، ليُسمع الأصمّ ويرجّ رمال البيداء ويوقظ صدى الكهوف والوديان، ويصدح بكلمة الحقّ فترفع من مقامه لأنّه رفع صوته.

في صباح اليوم التالي، استيقظنا على منظرٍ طبيعيّ خلّاب، كانت أشعّة الشمس الذهبيّة تتسلّل بخفّةٍ بين أوراق الأشجار، وتلقي بظلالها على الأرض، وكأنّها تعدنا بيومٍ جديدٍ مليء بالأمل بعد اللّيلة الماضية. بعد إنتهاء الجميع من فطورهم الصّباحي، قرّرت أنا وماثيو أن نلعب الفريسبي في الفناء المحيط بموقع التخييم. كانت الطّبيعة المحيطة بنا تشعرني بالسّلام، وكانت الجبال الخضراء والغابات الكثيفة تبدو وكأنها تحتضننا بحنان. بينما كنّا نلعب، شعرت بأن تلك اللّحظات البسيطة هي التي تشكّل الذّكريات الحقيقيّة، الذّكريات التي تبقى معنا حتى بعد انتهاء الرّحلة ومرور الأيّام والسنوات...

مع انتهاء رحلتنا في جبال السموكي العظيمة، عدنا جميعًا إلى الحافلة التي ستأخذنا إلى هاريسونبرج. كانت الحافلة هذه المرة مختلفة عن تلك التي انطلقت بنا في البداية؛ لم نعد مجموعة من الغرباء، بل أصبحنا أصدقاء قضوا مع بعضهم سبع صفحات من كتاب حياتهم، لم يكن لأحدٍ منها نصيب غيرنا. وبينما كانت الحافلة تشقّ طريقها بين التلال والوديان، بدأت أشعر بشوقٍ كبير للعودة إلى الجامعة، لرؤية وجوه أصدقائي مجددًا. تخيلت لقاءي مع هانا وعائشة وبهاء وهشام، وكنت أتوق لتناول إفطار حقيقي بعد كل تلك الأيام الصّعبة الخالية من الدجاج والأرز.

عندما وصلنا أخيرًا إلى الجامعة، نزلنا جميعًا من الحافلة، وأخذت أمتعتي وأنا أشعر بإحساس مختلط بالراحة والامتنان. وبينما كنت أرتب حقيبتي في غرفتي، وجدت رسالة صغيرة ملفوفة بعناية، كان عليها اسمي بخط يدوي دقيق. فتحتها بفضول، وإذا بها من سام رومانو:

"عبدالرّحمن، لقد جعلت رحلتي هذه استثنائية ولا تُنسى. لم ألتقِ يومًا بشخص مثقف مثلك، شخص ذكي جدًا وفي نفس الوقت مضحك ومرح، عبقري! لن أنسى أبدًا طيبتك وكل الدروس التي علمتنا إياها، لقد كنت النجم الساطع في هذه الرّحلة. أحبك جدًا! أختك الجديدة من نيو جيرسي، سام." جلست في غرفتي، ممسكًا بالرسالة، وأعدت قراءة الكلمات مرارًا وتكرارًا. تذكرت كيف كنت في البداية مترددًا في خوض هذه الرحلة، كيف كنت أخشى من مواجهة تجربة جديدة بعيدًا عن الأصدقاء الذين بدأت لتوّ أتعرف عليهم. لكن الآن، وبعد كل تلك الأيام، أدركت كم كنت محظوظًا لأنّني خضت هذه التجربة. لقد صنعت ذكريات لا تُنسى، وكونت صداقات جديدة، وتعلمت الكثير عن نفسي وعن الآخرين. ومع كل خطوة خطوتها في هاريسونبرج، شعرت أنني شخص مختلف، شخص أقوى وأعمق، جاهز لمواجهة التحديات القادمة بروح جديدة، اليوم وُلد عبدالرّحمن جديد!

رمضان

بعد عودتي من الرحلة، شعرت بأنني استعدت جزءًا كبيرًا من روح رمضان التي كنت أفتقدها خلال الأيام السابقة. كنت متخوفًا في البداية، قبل قدومي إلى هنا، من كيف سيكون رمضان في الولايات المتحدة، بعيدًا عن عائلتي وأجواء رمضان التقليدية. كنت أفكر كثيرًا في كيفية قضاء هذا الشهر الكريم في بيئة قد تكون بعيدة عن روحانية رمضان وأجوائه. لكن، مع مرور الأيّام، اكتشفت أن ما تبحث عنه يمكن أن تجده في الأشخاص الذين تختار أن تحيط نفسك بهم. كنت أدعو الله أن أجد من يشاركني هذه التجربة الدينية، وأن أكون محاطًا بأناس يريدون التعلّم والتقرب من الله، وها هو الله قد استجاب لدعائي.

في المسجد، شعرت بأنني لم أعد وحيدًا. الإفطار الجماعي كان مليئًا بأشهى الأطباق العراقية والمصرية، مما أعادني إلى أيام أمي الدافئة في رمضان، حيث كانت تجمعنا حول مائدة الإفطار. كانت لحظات تجّمعنا في المسجد تعيد لي ذلك الشعور بالانتماء، شعور بأنني جزء من عائلة كبيرة، عائلة تتجاوز حدود الدم والوطن.

عادت الرياضة إلى حياتي مجددًا، وبدأنا نلعب البيكلبول وكرة القدم معًا مرة أخرى. وفي اللّيل، كنا نجتمع للصلاة، نصلّي التراويح معًا، وقد كنت أقود التراويح كلّ ثلاثاء وخميس في غرفة صلاة الجامعة، وكان الشعور بأنّني أساهم في توجيه هؤلاء الشباب، ولو قليلًا، نحو الله يعطيني طاقة لا توصف. لا أنسى طبعا الإفطارات في الكافتيريا وفي مطعم "تي لْ سي"، حيث كانت جلساتي هناك مليئة بالمرح والمواقف الطريفة أيضًا، خاصة مع عمر وهشام ولوغان وبهاء وهانا وعائشة. كنا نجتمع ونتبادل القصص المجنونة، وكنت أشاركهم حسّي الفكاهي العجيب. تلك الضحكات والنّكات التي لا تُحصى كانت تجعلني أشعر بأنني في المكان الصحيح، مع الأشخاص المناسبين.

كنا نجتمع كل يوم في غرفة الصلاة، ندرس معًا، نقرأ القرآن ونتأمل في معانيه ونتبادل الأفكار حول ديننا، وكأنّنا نبحث سويًا عن الحقيقة، عن ذلك النور الذي يضيء دروبنا في هذا العالم، وهذه المرّة لم نكن وحدنا نسعى ونفتّش، لم نكن غرباء وحدنا، كنّا غرباء معًا، فطوبى للغرباء... أخيرًا، لقد شعرت بمعنى كلمة "أمّة" بشكل حقيقي، شعرت بأننا جميعًا متحدّون تحت راية واحدة، راية الدين، وأنّ لدينا نفس الأولويّات. تلك التجربة الروحية هي شيء سأظل أستذكره بكل حب وامتنان، فهي جعلتني أدرك أن الإنسان يستطيع أن يجد طريقه إلى الله أينما كان، عليه فقط أن يوجّه سعيه إلى الله ويخطو خطواته الصّغيرة ثمّ يجيئه كرم الله ورعايته ليحتويانه وليكافآ توجّهه نحو نور الرّحمان الذي لا يضيّع أيّة محبٍ له.

نيوجرسي ونيويورك

بعد مرور سنوات من رؤية خالي في زياراته المتفرقة إلى لبنان، قررت أن أخوض تجربة جديدة وأزوره أنا في الولايات المتحدة، حيث يقيم منذ عشر سنوات. خالي الذي طالما كنت أترقب قدومه بشغف، كان جزءًا كبيرًا من ذكريات طفولتي. كنت أنتظر زياراته القليلة بفارغ الصبر، لكم أحببت رؤيته، ولكم تطّلعت إلى قدومه الجالب للفرحة إلى قلبي الصّغير المتلّهف حينها، كان يسمعني ويجلب لي الألعاب ويخرجنا مع جدّتي إلى مختلف المطاعم، ومرّةً بعد مرّة، وزيارة بعد زيارة، كانت ملامحي تتغيّر، فأكبر فجأة، وكانت تجاربي تتكاثر فأنضج، ولم أكن وحدي أتغيّر، بل تغيّر الجميع وتبدّلت علاقاتنا وأشكالنا وأحلامنا، فمنّا من ازداد براءةً ومنّا من لم يعد يتعرّف عليها، وقد كنت في كلّ زيارةٍ أسأل نفسي، ما هو شعور خالي عندما يأتي ويذهب؟ وها أنا الآن، وقد ذقت القليل ممّا لاقاه، لا يسعني إلّا أن أكتب عن مرارة هذا الأمر، وعن البطولة التي قام بها خالي لهدفٍ أكبر وأسمى. حجزت تذكرة حافلة من هاريسونبرج إلى محطة الاتحاد في واشنطن دي سي، ومنها قطارًا إلى محطة برينستون في نيو جيرسي، حيث يعمل خالي كأستاذ في الجامعة. كانت هذه الرحلة أكثر من مجرد زيارة؛ كانت فرصة لأفهم جزءًا من حياته التي عاشها بعيدًا عنّا، وأن أرى بعيني ومضة من حياته في أمريكا.

وصلت إلى واشنطن وكان لديّ أربع ساعات من الانتظار في المحطة قبل انطلاق القطار. شعرت بأنّني بحاجة إلى استغلال هذا الوقت بشكل يجعل الانتظار أكثر إمتاعًا، فتواصلت مع صديقي المقرّب، سامي شيليك، وأخبرته بقدومي. التقينا وتجوّلنا في شوارع العاصمة، ثمّ توجّهنا إلى المركز الإسلامي في دي سي وصلّينا معًا. بعد الصلاة، أخذني سامي إلى مطعم "جورج" في جورجتاون، وهو مطعم لبناني معروف بالشاورما اللذيذة. كان الجو في المطعم يعج برائحة الطعام الطازج، وجلسنا هناك نتبادل الأحاديث بينما أصرّ سامي على أن يشتري لي وجبة الإفطار التي سأتناولها في القطار. بعدها، أعادني سامي إلى محطة الاتحاد مجددًا، حيث صعدت على متن القطار لأول مرّة في حياتي، وقد كانت تجربة ساحرة بحقّ. رؤية الولايات المختلفة تتوالى أمامي عبر نافذة القطار بينما أتناول الشاورما، جعلني أشعر بأنني أعيش لحظات لا تُنسى، عمران ديلاوير، بحر وجسر ماريلاند، الغابات الكثيرة، كانت هذه الرحلة التي استغرقت ثماني ساعات فرصة لي لأستمتع وأفكر في لقائي المرتقب مع خالي.

عندما وصل القطار إلى محطة برينستون، شعرت بتوتر ممزوج بالحماسة. كانت الجامعة التي يعمل بها خالي قريبة، وكان يعلم أنني قادم، لكن لم يكن يعلم بالضبط متى سأصل. خرجت من المحطة، وبينما كنت أبحث عنه، وجدته واقفًا هناك. هرعت إليه واحتضنته بشدة، لم أصدق أنني أخيرًا هنا، بالقرب منه بعد كل تلك السنوات. سرعان ما أخرجت هاتفي وأخذت صورة أنا وإياه لنبعثها على مجموعة العائلة، أنا هنا، نحن هنا، نحن معًا حقًّا هنا! تحدّثنا قليلًا، هو متعب من عمله وأنا متعب من الرّحلة، وصلنا إلى بيته، ثمّ خلدنا إلى النّوم.

في صباح اليوم التالي، ذهب خالي إلى عمله في الجامعة، وبقيت أقرأ كتاب العصفورية للكاتب غازي القصيبي على الكيندل خاصّتي، والتي جلبها لي صديقي إسماعيل كهديّة على عيد ميلادي الماضي، فقال البروفيسور، وهو بطل الكتاب، "مشكلتي الحقيقية ليست النسيان، مشكلتي كثرة الذكريات"، فاستوقفتني هذه الكلمات، وبالصدقها، أنا اليوم في أمريكا وقد خضت فيها الكثير من المغامرات، وخالي عبدالرحمن قضى في جورجتاون سنتين من عمره، وخالي حسن قضى هنا عشرة سنوات! نراها كرزنامة أيّام، إلّا أنّها شريط فلم أحداثه فيها البكاء والابتسامة والشوق والحبّ وأصدقاء جدد وغرباء لا نستطيع نسيانهم لأنّهم يشكّلون قطعةً من قصّتنا المنسيّة، حكايانا التي لا يعلمها إلّا نحن ولا نجد من نلقيه عليها إلّا أقلّ القليل، فكيف أقصّ خمسة أشهر، أو سنتين أو عشر سنوات، من دون أن أظلم تلك اللّحظات، أو أن أنسى قصص القطار ومن آنسني في رحلاتنا الطويلة، كيف أنسى بائع الخضار، وسائق الحافلة السوداني عثمان الذي أوصلني من المطار، كيف؟! أخاف الآن على هذه الذكريات القريبة، لأنّ القديمة تكاثرت عليّ فنسيت جلّها، ولم أتذكّر منها إلّا الأيّام "المميّزة"، وإنّي بتّ أسعد الآن لتذكّر أيّامي الماضية العادية، التي ليس فيها إلّا حديثي مع جدّتي وشعري القديم وفلم شاهدناه وبوظة أكلناها، يوم عادي، ويا ليتني أتذكّر كلّ أيّامي العادية وكلّ محادثاتي مع أمّي، وكلّ مباراة كرة قدم لعبتها في الحيّ، يا ليتني أتذكّر، ولكنّ مشكلتي ليست النسيان، إنّما مشكلتي كثرة الذكريات...

عاد خالي من عمله، ثمّ اصطحبني معه إلى جامعته، جامعة برينستون، وكانت هذه أوّل جامعة آيفي تلمسها قدماي، شعرت أنّ حرمها يشابه قريةً ألمانيّة من العصور الوسطى، أناسها وتلامذتها يبدو عليهم الإرهاق الشديد ولم أشعر أنّ ساحاتها إجتماعيّة، عكس جامعة جيمس ماديسون، فبرينستون، كما هو معروف عنها، جامعة فقط للدراسة! أخذني إلى المكتبة، ولكن لسوء حظّنا كانت المكتبة قد أغلقت أبوابها من ربع ساعة. هدف الرّحلة إلى المكتبة كان لرؤية مصحف، لا أعلم كيف جلبوه إلى هنا، يبلغ عمره ألف عام وقد أحزنني عدم رؤيتي له، فأخبرني خالي عنه وأراني الصّور التي أخذها لصفحاته عندما كان يقوم بزيارته الأولى للمكتبة، فاجتاحتني فكرة جميلة، وهي أنّني أتلو ما في هذا المصحف الذي يبلغ عمره ألف عام، ولا يختلف بيننا حرف، وأتلو ما تلاه الصحابة الكرام وما تلاه النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، ولا يختلف بيننا حرف، رابط روحيّ يصل بيني وبينهم، كلمات الله تشكّل سلسلةً بين ألسنتنا وبين أرواحنا ليقول الصحابيّ الجليل، وليقول الأمويّ، والعباسيّ، والأندلسيّ والعثمانيّ وغيرهم، ولأقول أنا، بسم الله الرّحمن الرّحيم...

ذهبنا من بعدها إلى مطعم سوشي قريب وفاخر كي نكسر صيامنا عند أذان المغرب، كنت أعلم أنّني لا أحبّ الطعام البحري ولا أستسيغ السوشي، ولكنّني لم أرغب في إزعاج خالي الذي كان يعشق هذا النوع من الطعام. انتظرنا قرابة العشرين دقيقة للحصول على طاولة، ثمّ جلسنا وسط جوّ هادئ وإضاءة خافتة تملأ المكان بأجواء فاخرة. بدأ خالي بطلب جميع الأنواع والأصناف الممكنة من السوشي، وكان مصمّمًا على أن أجرّب كل شيء. جاءت أولاً شوربة الأعشاب البحرية، وكانت أوّل تجربة لي مع هذا الطّبق الغريب. طعمها لم يكن سيئًا، لكنه كان يحمل نكهة غريبة لم أستطع تحديدها، نكهة كانت تترك أثراً غير مألوف على لساني. ثم جاء دور السوشي، وحينها بدأت المغامرة الحقيقيّة. جربت قطع السوشي واحدة تلو الأخرى: الروبيان، السلطعون، السلمون، وأشياء أخرى لم أكن متأكدًا حتى ممّا هي. بصراحة، لم أكن مستمتعًا بطعم أيٍّ منها. كنت أجبر نفسي على الأكل، محاولًا إخفاء امتعاضي بينما كان خالي ينظر إليّ مبتسمًا بفخر، ظانًّا أنّني أستمتع بالوجبة مثله. الوحيدة التي تمكنت من ابتلاعها دون تردّد كانت السبيط، فقد كان طعمه معقولاً، لكن بعد عدّة قطع بدأت أشعر بالدوار وكأنّي تناولت شيئًا ليس من هذا العالم.

رغم كلّ تلك المحاولات، كنت لا أزال جائعًا ولم أستمتع بالوجبة على الإطلاق. في لحظة من اليأس، نظرت إلى خالي وطلبت منه أن يطلب لي طبقًا من البطاطس المقلية. نعم، بطاطس مقلية في مطعم سوشي ياباني فاخر! نظر إليّ خالي وكأنّني ارتكبت جريمة لا تغتفر، وكان على وشك أن يقتلني من فرط الصدمة، لكنه انفجر ضاحكًا بعد ذلك. كانت اللحظة مضحكة للغاية، أنا قادم من صيدا، أجلس في مطعم سوشي في أمريكا، وأطلب بطاطس مقلية. يا لها من مهزلة!

لكنّ الأمر لم يتوقف هنا. بعد أن هدأ خالي من ضحكته، طلبت شيئًا آخر: سلطة السردين. وكشخص صيداوي، كان طعم السردين مألوفًا بشكل مريح ولذيذ. أخيرًا، شعرت وكأنّني أتناول طعامًا أعرفه وأحبه. كان تلك الجلسة واحدة من تلك اللحظات التي تبقى عالقة في الذاكرة، نضحك عليها كلّما تذكرناها ونتمنّى أن لا ننساها عندما تكثر الذكريات...

في اليوم التالي، عاد خالي إلى عمله في الجامعة، وتركني في المنزل مع بعض المهام الدراسية التي كان عليّ إنجازها. قضيت الصباح في التركيز على واجباتي، لكنّ عقلي كان مشغولاً بانتظار عودته. كانت علاقتي بخالي دائماً مميزة، وكان من الأشخاص الذين أقدرهم وأحبّهم بشدة، ليس فقط لأنه كان قريباً منّي في الطفولة، ولكن لأنه كان مثالاً يحتذى به في حياته العملية والشخصية. عندما عاد في المساء، اقترح أن نخرج في جولة على دراجته النارية، وهكذا بدأت مغامرتنا في أنحاء نيو جيرسي على متن هارلي ديفيدسون الخاصة به والتي سمّاها "سلوى" لأنّها بطبيعة الحال تسلّيه. كانت تلك المرة الأولى التي أركب فيها دراجة نارية بهذا الحجم، وما أن انطلقنا حتى شعرت بنسيم الهواء العليل يلفح وجهي ونحن نجوب الطرقات المتعرجة، محاطين بالطبيعة الخلابة والهدوء الذي يميز هذا الجزء من الولاية. مررنا على برك وبحيرات، وكلما ابتعدنا عن المدينة ازدادت المناظر الطبيعية جمالاً. كانت هناك مدارس في كل زاوية، وكنت أتخيّل الأطفال الذين يكبرون هنا وهم يضعون أعينهم على هدفهم الكبير: جامعة برينستون.

بعد عودتنا إلى المنزل، بدأنا في تحضير الإفطار معًا. كنت واقفًا بجانب خالي في المطبخ، أراقب تحركاته بدقّة بينما يقوم بتقطيع الخضروات ويجهّز المكونات. كان خالي يتمتّع بمهارة كبيرة في الطّبخ، وكان يعرف كيف يجعل كلّ خطوة تبدو سهلة وممتعة. لم نكن نحتاج إلى الكثير من الكلمات للتواصل، فالتناغم بيننا كان واضحًا. بينما كان الدجاج في الفرن، بدأنا نتحدث عن موضوعات عميقة تتعلق بالدين والفلسفة. خالي كان دائمًا شغوفًا بهذه النقاشات، وأنا معه، كأنّني أراقب نفسي، أنا كبير، كنت أستمتع بالاستماع إليه وهو يعرض أفكاره ونظرياته. تناولنا مواضيع متنوّعة، من معنى الحياة إلى طبيعة الإيمان، وكان لكلّ سؤالٍ جواب ولكلّ جوابٍ تساؤل آخر. الوقت مرّ سريعًا في هذا النقاش الغني، ولم نشعر به حتى انتهينا من إعداد الإفطار. بعد الإنتهاء من الأكل، أعدّ خالي شايًا بالزنجبيل وهو تقليد قديم لديه لم يتغير على مر السنين. جلسنا معًا نحتسي الشاي، ثم قررنا أن نلعب لعبة "A Way Out" على الـPS5. بدأنا في اللعب بسرعة، وكلّ منا يحاول أن سقوم بالمهام في اللّعبة بأنانية، ولكن بعد قليل مزجنا مهاراتنا واستطعنا أن ننهي اللعبة. كانت الأجواء مرحة وخالية من الجديّة، كلّما تقدّمنا في اللعبة، كانت الضحكات تتعالى من حين لآخر بينما نأكل البسكوت اللّذيذ على الطّاولة.

في نهاية اليوم، خلد خالي إلى النوم، أما أنا، فقد بقيت مستيقظًا قليلاً في الليل، أستلقي على الأريكة وأكمل قراءة كتاب "العصفورية" على الكيندل، مستمتعًا بالدفء الذي يملأ المكان وبضوء المصباح الذي كان يبدو مثل سحابة تنير الغرفة. شعرت بالراحة والسكينة، وكأنني في حضن منزلٍ اعتدت عليه، بينما كانت كلمات البروفيسور تملأ رأسي بأفكار جديدة...

أشرقت شمس يومنا الجديد، يوم عطلة خالي حسن، وأخيرًا حان الوقت لزيارة نيويورك، المدينة التي طالما حلمت بزيارتها، المدينة التي لا تنام. كانت نيويورك بالنسبة لي ليست مجرد مدينة، بل مكانًا يحمل في طيّاته كل الأفلام التي شاهدتها، وكلّ الكتب التي قرأتها، كنت متحمسًا لعيش تجربتي الخاصة، لصنع ذكرياتي في هذه المدينة الصاخبة. تذكّرت عند وصولنا كلّ رحلات خالي من نيويورك إلى لبنان، ولكن هذه المرة أنا قمت بالزيارة، من لبنان إلى نيويورك. كلّ تلك الصّور التي رأيتها على مجموعة العائلة، كلّ تلك المباني الكبيرة، لم تعد مجموعة من البيكسلات على شاشة هاتف جدّتي بل أصبحت واقعًا أمام عينيّ. زرتُه ونزلنا إلى جامعته التي قضى فيها جلّ شبابه، جامعة "كولومبيا"، الآيفي الثانية التي أزورها، وبينما كنّا نطوف في حرمها، كان يتذكّر بعض أيّامه هناك، بعض الحكايات التي أيضًا لم نكن جزءًا منها، ذلك المقعد الخشبي فوق الجسر الذي احتضنه واحتضن حواراته الفلسفية تحت ضوء القمر مع أقرانه، المكتبة التي نحت فيها أبحاثه وتعرّف فيها على أستاذه، كلّ ذلك لم نعهده، كلّ تلك الأيّام، كلّ تلك الحكايات، كلّ تلك الخلايا التي سقطت على أرض جامعته لم تخالط خلايانا ولم يكن لنا فيها نصيب إلّا بزيارةٍ مدّتها أربعة أيّام بعد عشرة سنوات من الإنتظار، والحمدلله. مشينا في الجامعة وقد كان يوم زيارتنا يوم أخذ صور التخرّج للطلّاب، فرأيت المتخرّجين والمتخرّجات بحللهم الباهية يأخذون الصور مع معالم الجامعة، هذه الجامعة التاريخيّة التي يقع حرمها في وسط نيويورك، بين النّاس، متفجّرة بالحياة وبالقصص، متفجّرة بتجارب نيويوركيّة، تجربة لا يستطيع أحد تذوقها في أي مكان آخر في العالم إلّا في جامعة كولومبيا، وما أروعها من جامعة. نزلنا بعدها إلى ساحات نيويورك، إلى تايمز سكوير، فأخذت صورة أنا وإيّاه رافعي الأيدي، مقلّدين صورته الأولى في أميركا، في نفس المكان، قبل عقدٍ من الزّمن...

كانت نيويورك كما تخيلتها وأكثر. آلاف الأشخاص من كل ركن من أركان العالم يتدفقون في شوارعها المزدحمة، أصواتهم تتداخل مع ضجيج السيارات وصفارات الإنذار، وأضواء الشاشات العملاقة في كل زاوية تضفي على المدينة سحرًا خاصًا. كنت منبهرًا بكل شيء حولي. تلك المباني الشاهقة التي تبدو وكأنّ لا نهاية لها، كانت تدفعني للتخيّل. تخيّلت سبايدر مان ينطلق بين تلك المباني، يقفز من خلفها، يشق طريقه عبر السماء بشباكه كما في الأفلام التي طالما أحببتها أنا وأخي في طفولتنا. لم نتوقف هناك، بل دخلنا إلى متجر ديزني الكبير في تايمز سكوير. وبينما كنّا نتجول في المتجر، استوقفنا شيء خاص. رأينا دمية "ستيتش"، تلك الشخصية الكرتونية التي كان خالي يحبّ أن يناديني بها عندما كنت صغيرًا. ابتسمت وقلت له: "علينا أن نشتريها." وبدون تردد، اشتريناها، فأخذتنا الحياة في دورة كاملة، وأعادتنا إلى لحظاتنا البسيطة والمليئة بالحبّ أيّام الصّغر. كلّ شيء في هذه الرحلة كان يحمل جزءًا من الماضي، وفي نفس الوقت يبني ذكريات جديدة لي. نيويورك لم تكن مجرد مدينة؛ كانت لوحة تجمع بين الحاضر والماضي، بين الحلم والواقع، بين الطفولة والنّضج، وكأنّني أعيش في قلب ذكرى جميلة تتحقّق الآن أمام عينيّ.

انطلقنا بعدها لاستكشاف المزيد من نيويورك، وقررنا أن نخوض تجربة كاملة باستخدام المترو. كان المترو بحد ذاته تجربة فريدة، الجدران المغطاة بالرسومات الجرافيتي الجميلة التي تعبر عن روح المدينة ومعالمها الجميلة، القطارات السريعة التي تشق طريقها عبر الأنفاق المظلمة، كل ذلك كان جديدًا عليّ. انتقلنا من محطة إلى أخرى، من مانهاتن إلى هارلم، حيث رأيت جانبًا مختلفًا تمامًا من نيويورك. كأن كل محطة كانت مدينة صغيرة بحد ذاتها، مليئة بالحياة والقصص.

ثم قررنا أن نتوجه إلى أستوريا، أو كما يسمّيها البعض "مصر الصغرى." بمجرد أن وصلنا، شعرت وكأنني عدت إلى الشرق الأوسط. كل شيء كان هناك يوحي بذلك: أسماء المحلات المكتوبة بالعربية، المساجد المنتشرة في الأرجاء، عربات الطعام والأصوات التي تنادي في الشوارع: "كشري! كشري!" كان المشهد مألوفًا للغاية، وكأنني في قلب القاهرة وليس في نيويورك. لكن هذا المزيج الثقافي كان جميلاً للغاية، شعرت بالفخر أن أرى جزءًا من ثقافتنا يعيش هنا في قلب نيويورك. بعد جولتنا في أستوريا، توجهنا إلى مطعم لبناني مغربي قريب لنكسر صيامنا. كان المطعم ممتلئًا بالحياة، ورائحة التوابل والأطعمة الشرقية تعبق في المكان. لكن المفاجأة كانت داخل المطعم، هناك، كان ينتظرنا حوالي عشرون شخصًا من طلّاب خالي، جميعهم من جامعات نيويورك المختلفة، وجميعهم جاءوا ليشاركوا في إفطارنا. تنوعت الجنسيّات والخلفيات، وكلّ واحدٍ منهم كان يتحدّث العربيّة بدرجات متفاوتة، فهي المادة التي كان يدرّسها لهم خالي. بعد أن تعرّفنا على بعضنا البعض، بدأت القصص بالتدفّق. كان هناك الطالب الذي غيّر تخصصه، وآخر كان قد خطب ثم ترك خطيبته، وآخر كان جنديًا في البحرية الأمريكية، ثم تعرفت على أسد الله، أول أوزبكستاني أقابله في حياتي. كان هناك خليط مجنون من القصص والذكريات والنقاشات والنكات، وكلّ ذلك تزامن مع أفضل وجبة إفطار تناولتها في الولايات المتحدة. من بين الحضور في تلك الأمسية المميزة، كان هناك شاب يُدعى حاتم. حاتم كان حافظًا للقرآن الكريم، من أصول باكستانية ويدرس الطب في إحدى الجامعات في نيويورك. منذ اللحظة الأولى التي تعرفت فيها عليه، شعرت بأنني أمام شخص مميز للغاية. كانت أخلاقه الرفيعة واضحة في كل تصرفاته، وفي طريقة حديثه الهادئة والمتواضعة. كان يتحدث بحكمة لا تتناسب مع سنّه، وكانت لديه معرفة دينية عميقة وحبّ كبير للعلم. حاتم كان مثالاً للشاب المثالي؛ تديّنه كان متجذّرًا فيه، ليس مجرد مظاهر بل جزءًا من كيانه. كان كريمًا وسخيًا، ليس فقط بالمال بل بالوقت والاهتمام. لم يكن يتحدث كثيرًا، لكنه عندما كان يتحدث، كانت كلماته تصل مباشرة إلى القلب. شعرت براحة كبيرة في الحديث معه، وكأنني وجدت شخصًا يشبهني في الاهتمامات والقيم. تبادلنا العديد من القصص، تحدثنا عن الصعوبات التي واجهناها كمسلمين في بلد غريب، وعن التحديات التي نواجهها في الحفاظ على ديننا وهويتنا في مثل هذه البيئة. كانت تلك المحادثات ممتعة وعميقة، وكان فيها الكثير من التأملات حول الحياة والدين. كلما تحدثت مع حاتم، شعرت برغبة قوية في أن أصبح شخصًا أفضل، أن أقترب أكثر من الله، وأن أعيش حياتي بطريقة تعكس إيماني وقيمي. عندما حان وقت الرحيل، اقترح خالي أن يأخذ حاتم معنا في السيارة ليقوم بتوصيله إلى منزله. كانت تلك فرصة أخرى لنا لنتحدث ونتعرف أكثر على بعضنا البعض. في الطريق، استمر حديثنا عن الدين والحياة، ووجدنا أن هناك الكثير من الأمور التي نتفق عليها. على الرغم من أنني التقيت بحاتم لليلة واحدة فقط، شعرت بأننا كوّنا رابطة أخوة لا يمكن أن تنقطع. كان هناك شعور بالارتباط والتواصل العميق، وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل. وعدنا بعضنا البعض بأن نبقى على تواصل، وبأن ندعم بعضنا البعض في الطريق الذي اخترناه في حياتنا.

بعد أن أوصلنا حاتم إلى منزله، استعدنا طريقنا في السيارة، وكأنّ اللحظات التي تلت هذا اللقاء كانت تحمل في طياتها شيئًا مميزًا. بدأنا أنا وخالي حديثًا لم يكن مخططًا له، لكنه سرعان ما تحول إلى واحدة من أعمق وأثرى المحادثات التي خضتها

في حياتي. كنا نتحدث عن الدين، عن ماهية المسلم الحقيقي، عن مهمتنا في الحياة كأشخاص منحهم الله العلم والمعرفة، وعن الدور الذي يجب أن نلعبه في خدمة ديننا وأسرنا. كل كلمة كان لها وزنها، وكأنّ خالي كان يعطيني دروسًا غير مكتوبة، كلمات كانت تحمل في طياتها خلاصة تجربته في الحياة وحكمته التي اكتسبها عبر السنوات. تحدثنا عن التحديات التي تواجه المسلم في هذا الزمن، وعن كيفية التمسك بمبادئنا في عالم متغير. كان النقاش يمس أعماق قلوبنا، وكان مليئًا بالتأملات والأفكار التي جعلتني أعيد التفكير في الكثير من الأمور.

خالي كان يتحدث بإخلاص وصدق، وكان يشجعني على أن أكون دائمًا الأفضل، ليس فقط في حياتي الشخصية، بل أيضًا في خدمة الآخرين. ناقشنا كيف يمكننا استخدام معرفتنا وتجاربنا لنكون مصدرًا للخير وللإيجابية في العالم. كنا نتحدث وكأننا نبني خطة مشتركة، كأننا نضع أسسًا لرؤية مشتركة لما نريد أن نكونه كمسلمين. عندما وصلنا إلى نهاية حديثنا، كانت اللحظة تحمل ثقلًا خاصًا. نظرنا إلى بعضنا البعض وأدركنا أن هذا الحديث لم يكن مجرد حوار عابر، بل كان اتفاقًا عميقًا بين رجلين يجمعهما حب الله. مددت يدي إلى خالي، وقبضنا على يدي بعضنا البعض بقوة، ونحن نردد معًا قول النبي صلى الله عليه وسلم:

"ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه."

كانت تلك اللحظة وعدًا بيني وبين خالي، وعدًا يجمعنا، كمسلم ومسلم، كرجليْن قررا أن يسيرا في طريق واحد، طريق يخدم دينهما وعائلتهما. وبعد أن أتممنا هذا الوعد، عدنا إلى البيت، وكان السكون يلف المكان، لكن داخل قلوبنا كان هناك شعور بالسلام والرضا. خلدنا إلى النوم ونحن نشعر بأننا وضعنا أساسًا جديدًا لعلاقتنا، وعهدًا سيبقى معنا ما حيينا.

استيقظنا في اليوم التالي، وكان الحزن يخيّم على الأجواء. أتت اللحظة التي كنت أهابها طوال رحلتي، لحظة الوداع. رغم السعادة التي شعرنا بها في هذه الأيام القليلة، كان من الصعب علينا أن نفترق بعد هذا الوقت الثمين الذي قضيناه معًا. كنا ممتنين للغاية، ممتنين لهذه الفرصة التي جمعتنا بعد سنوات طويلة من البعد. توجّهنا إلى متجر قريب، حيث كانت صديقتي إيلينا، التي تعرفت عليها في مخيم جبال سموكي، تنتظرني لتعيدني إلى هاريسونبرغ. عندما حان وقت الوداع، تبادلنا نظرات مليئة بالمشاعر، لم تكن هناك حاجة للكلمات، فالعلاقة التي بنيناها خلال هذه الرحلة كانت تتحدث عن نفسها. عانقت خالي بشدة، وشكرته على كل شيء، ثم ركبت السيارة، وإيلينا إلى جانبي، وبدأت رحلة العودة. ما يمكنني أن أقوله هو أن أمريكا قبل رحلة نيويورك شيء، وبعدها شيء آخر مختلف تمامًا، اجتاحني الحزن بعد الوداع، ولكنّه اختلط بالامتنان للذكريات التي سنحتفظ بها طوال حياتنا...

الشّهر الرّابع

في منزل بهاء

عدت إلى هاريسونبرغ بعد رحلتي إلى نيويورك، وأنا أحمل في قلبي ذكريات لا تُنسى. كانت الأيام القليلة التي قضيتها في المدينة الكبيرة مليئة بالمغامرات والتجارب التي لن أنساها أبدًا. ومع ذلك، كان عليّ أن أعود إلى واقعي الجامعي، فقد فاتتني العديد من الحصص والدروس، وكان الوقت قد حان لتعويض ما فاتني. حضرت محاضراتي، وحاولت التركيز على دروسي رغم أن عقلي كان ما زال يعيد مشاهد تلك الرحلة الرائعة. بعد يوم طويل من الدراسة، التقيت بصديقي بهاء، الذي دعاني مرة أخرى إلى بيته، كي أخبره عن مغامراتي في نيويورك. بعد أن أنهيت دروسي لليوم، جاء بهاء ليأخذني إلى منزله. بمجرد وصولنا، أدينا صلاة المغرب معًا على شرفته المطلة على الحديقة. بعد الصلاة، جاء وقت الإفطار. جلست مع عائلة بهاء حول المائدة، وكان الجو دافئًا وحميميًا. بدأنا الحديث عن لبنان والعراق، وتبادلنا القصص. سألوني عن حياتي، وكانوا مهتمين جدًا ويستمعون إليّ وإلى الأسباب التي جاءت بلبنانيّ إلى هاريسونبرج. كان جميلًا أن أكون بين أفراد عائلة، على مائدة الإفطار، في رمضان، فهذا أشدّ ما افتقدته في هذه البلاد. شعرت بأنني جزء منهم، وكان هذا الشعور غريبًا ولكن جميلًا في نفس الوقت.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام اللذيذ الذي أعدته والدة بهاء، والذي كان يحتوي على بعض الأطباق اللبنانية التي قامت بتحضيرها خصيصًا لاستقبالي، أحضروا كعكة بشكل مفاجئ. لم أكن أتوقع هذا أبدًا. كانت كعكة لعيد ميلادي الذي مرّ قبل

بضعة أيام. بهاء تذكّر، وعائلته تذكّرت أيضًا. بأجمل الكلمات وأصدقها، قالوا لي: "أنت جزء منا، لديك دائمًا بيت هنا في هاريسونبرغ. عيد ميلاد سعيد!"

تلك اللحظات مع بهاء وعائلته جعلتني أدرك أنني لم أكن وحدي أبدًا، وأن الله دائمًا يحيطني بأناس طيبين يجعلونني أشعر بالانتماء، حتى في أبعد الأماكن عن بيتي.

محاولة الطّبخ

قرّر نادي الطلاب المسلمين في الجامعة تنظيم إفطار جماعي على طريقة "البوتلاك" حيث يحضّر كل شخص طبقاً ليشاركه مع الآخرين. كانت الفكرة جميلة، وأنا وهناء اقترحنا أن نعدّ بعض الأطباق للطّلاب. اتّفقنا أيضًا مع عائشة وبهاء أن يساعدونا في الطّهي وأن يشاركونا هذه التجربة قبل الذّهاب إلى قاعة الإفطار. كان قراري الشّخصي أن أطبخ يخنة البندورة، وهو طبق لبناني بسيط ولذيذ، أستطيع بمهارات الطّبخ المحدودة لديّ أن أقوم به. قبل يوم الإفطار، انطلقنا في مهمة البحث عن لحم حلال في المنطقة، وبعد بحث طويل، عثرنا أخيراً على ما نحتاجه، في محل كردي اسمه بابليون. اشترينا الكثير من الطماطم، كما اشترينا علبة كاجو وبعض البصل، بينما تولى بهاء مهمة إحضار الأرز والزيت من بيته. جاء يوم الإفطار، فاتّصلت ببهاء ليأتي ويقلّني إلى مكان الطهي، لكن فوجئت بأنّه كان مريضاً. وبما أن والده طبيب، لم يسمح له بالخروج من البيت حتى لا تسوء حالته الصحيّة أو ينقل العدوى للآخرين. كان هذا أول تحدٍ واجهنا ذلك اليوم. لم يكن أمامي سوى أن أتّصل بهناء وعائشة، اللتين جاءتا على الفور لإنقاذ الموقف، ثمّ أخذتاني إلى صالة السّكن الخاصّة بهما، حيث كنّا سنبدأ عمليّة الطّهي في المطبخ الكبير المخصّص للطّلاب. كانت هناء تخطّط لتحضير طبق إثيوبي تعلّمته من والدها، الذي كان قد تربى على يد مربيّة إثيوبيّة، لذلك كانت تعرف بعض الوصفات التقليديّة. ولكن، ما إن بدأنا في الطهي حتى انطلقت صرخة من عائشة، لقد توقّف جهاز "الماك بوك" الخاص بها عن العمل فجأة. جلسنا في حالة من الصدمة لمدة نصف ساعة، نحاول فهم ما حدث ونتصل بالدعم الفني، ولكن بلا جدوى. اليوم كان يتحول إلى كارثة، وعائشة كانت على وشك البكاء.

رغم كل هذا، قررنا المضي قدماً. بدأت بتقطيع الطماطم، وبدأت هناء في تجهيز مكوّناتها. وضعت اللحم والبصل والكاجو في القدر، وكان كل شيء يبدو على ما يرام حتى الآن. بعد أن قطّعت حوالي أربعة كيلوغرامات من الطماطم، وضعتها على النار، وتركتها لتطهى لمدة 45 دقيقة كما قالت لي أمّي. ذهبت بعدها لأداء الصّلاة وإنجاز بعض الواجبات الدراسيّة، وعندما عدت كانت المفاجأة: الطمتطم لا زالت كما هي، وكأنّها لم تُطهى! بدأت الأمور تسوء بشكل كبير، وكل شيء كان ينهار من حولنا. هناء كانت تواجه صعوبة مع طبقها، وعائشة كانت لا تزال متأثرة بتعطل جهازها. كنّا نصيح، نضحك، ونبكي في نفس الوقت، بينما نصوّر فيديو لنتذكّره لاحقًا عندما أسافر. لم يكن لدينا سوى نصف ساعة على الإفطار، ولم يكن أي شيء جاهزاً بعد. في خضّمّ هذه الفوضى، اتّصلت عائشة بصديقة لها، لتُحضر لنا الرايس كوكر الخاص بها، وذلك لأنّ الوقت كان قد نفذ منّا، ولا سبيل لإنهاء الطّعام على الوقت.

ومن ثمّ المفاجأة الكبرى، بالنسبة للطماطم، اكتشفت أنّ المشكلة كانت في الموقد! فقد كانت العين التي وضعت عليها القدر معطّلة تماماً! نقلت القدر إلى عين أخرى، وأخيراً بدأت الطماطم في الطهي واكتسبت اللّون الذي أردته. لكنّ الوقت كان قد فات، فقد أذّن المغرب والطّلاب الـ30 كانوا ينتظرون الطّعام! كنّا في حالة هلع، وهناء كانت تتساءل كيف يمكن أن نخرج من هذا المأزق. بعد حوالي 30 دقيقة من الأذان، انتهينا أخيراً. حملنا الطعام، الأرز الذي لم يكن مثالياً بسبب استخدام الرايس كوكر، والطماطم التي بدأت للتو في النضج، وتوجّهنا نحو مكان الإفطار. كان أكثر النّاس قد أكلوا أو رحلوا، فكان يجب علينا أن ننهي كلّ هذه الكميّة من الطعام بأنفسنا، في النهاية، كان يوماً صعباً للغاية، وربما أكثر الأيام تحدّياً لي في الولايات المتحدّة.

إلى اللّقاء يا حبيبي

أتت اللّيالي العشر الأخيرة من رمضان، فكانت تجربةً روحانيّةً لا تُنسى، تغيّبت عن حصصي الدراسيّة، وكرّست نفسي للعبادة وللتأمّل في القرآن الكريم. كانت حلقات القرآن تجمعنا في المسجد، حيث نتلو الآيات سوياً، ونستشعر معانيها ونتأمل في رحمة الله وبركاته. وعندما يحلّ الليل، كنا نصطفّ في صفوف صلاة التراويح، ونقف وراء الشيخ العراقي الملقّب بذي الصوتين، فتلاوته عند صلاة التراويح تختلف عن تبك في صلاة التهجّد. كم كانت تلك اللّيالي صافية، نبدأها بالإفطار الجماعي، نتشارك الطعام والأحاديث، ثم نتوجه إلى المسجد الذي بات يربط بين قلوبنا، نصلي ونتضرع ونسأل الله من فضله.

وبعد انتهاء التراويح، كان الملعب ينتظرنا، لنلعب كرة القدم معًا، كنّا نلعب بروح الأخوة الصافية ونضحك، كان الجميع هناك: هشام، وعمر، وسيد، وحسنات، وأرسلان، وشعيب، وبهاء، كلّنا مجتمعون على حب الله وحب بعضنا البعض.

وفي الليالي الوترية، كانت الأجواء تزداد قدسيةً وعمقًا. نلتقي في المسجد، نصلّي، ندعو، وكل واحد منا يحمل دعوات الآخر في قلبه، نتمنى لبعضنا الخير في هذه الليالي المباركة. كانت تلك أول ليلة قدر أحييها في أمريكا، وربما تكون الأخيرة، وبالفرادة التجربة. خشيت في البداية أن يكون رمضان بعيدًا عن وطني صعبًا، ولكنّه تحوّل إلى أفضل رمضان عشته في حياتي. في هذه الأرض الغريبة، وجدت إخوةً لي، وكوّنا معًا رابطة أخوة لن تنكسر، رابطة أخوّة ازدادت صلابة في رمضان، وما أجمل رمضان، وما أنقى رمضان، فإلى اللّقاء يا حبيبي.

رحلة واشنطن الأخيرة

كانت رحلتي الأخيرة إلى واشنطن دي سي مليئة بالشغف، بالخليط ما بين الماضي والحاضر، إذ كان يتخلّلها لقاء يجمع جميع طلّاب الدراسة في الخارج، ومن بينهم أصدقائي الذين عرفتهم في لبنان، وعلى رأسهم إسماعيل، زميلي في السكن! كنّا قد نزلنا في فندق فاخر في قلب العاصمة، وكان الشّوق يملأني لرؤية إسماعيل مجددًا، ولأروي له كلّ القصص والتجارب التي عشتها منذ أن افترقنا. ولم تكن هذه الرحلة عادية، فقد رافقنا صديقي سامي، ذلك الجنتلمان التركي، الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتي في الولايات المتحدة. عرّفت سامي على إسماعيل، ثم انضم إلينا يوسف، صديق تونسي يدرس في جامعة قريبة في فرجينيا أيضًا، لم يكن لي الحظ في التقرب منه بالرغم من أنه كان يدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت القريبة من جامعتي في لبنان.

كانت هذه زيارتي السادسة إلى واشنطن دي سي، لكنّها كانت الأولى لإسماعيل، فكان علينا أن نُريه أجمل معالم المدينة. انطلقنا في جولة بدأناها بالنصب التذكاري، مرورًا بنصب لنكولن التذكاري، وقد كان جميلًا أن أشارك تجربة إسماعيل في رؤية دي سي لأوّل مرّة، فقد أحسست أنّي أعيش خلاله التجربة من جديد. وفي أثناء نزهتنا الهادئة، فوجئت برؤية راكون كان يتجول بالقرب من البحيرة، فأخذت صورة له ثمّ حاولت أن ألحقه وأضايقه، لكنّني لم أستطع أن ألحقه، فقد كان سريعًا جدًّا. وبينما كنّا نمشي، أحسست باللّحظات تنزلق من كفيّ، نحن هنا، نتبادل الأحاديث العميقة، أنا، اللبناني، وإسماعيل الفلسطيني، ويوسف التونسي، وسامي التركي، كلّ منا يحمل قصة مختلفة، في قلب دي سي، ثمّ سنفترق من بعدهاولا يبقى من اليوم إلّا هذه الكلمات وأثر في الذّاكرة،ولربما يكفينا ذلك...

في اليوم التالي، كنت مجبرا على حضور الجلسات المملّة المليئة بالرسميات، حيث كان يجب علينا أن نشارك تجاربنا في أميركا مع بعضنا البعض ونستمع إلى خطابات طويلة لم أجد فيها الكثير من الإثارة. بعد انتهاء المؤتمر، قررنا أن نستغلّ الوقت في استكشاف متاحف واشنطن دي سي حيث تجولنا بين المعارض الفنية والتاريخية، لكنّ الجزء الذي لا يُنسى من هذه الرحلة كان مغامرتنا اللّيلية. قرّرت أنا وإسماعيل ويوسف أن نستأجر ثلاث دراجات للقيام بجولة ليليّة في شوارع واشنطن. كان النسيم اللّيلي يلفح وجوهنا بينما كنّا نتجول بحريّة عبر المدينة حيث انطلقنا بدايةً إلى السفارة التونسية، فقط من باب التسلية، وأخذنا صورة بجانبها. ثم واصلنا رحلتنا عبر الأحياء المختلفة للمدينة، الشوارع هادئة، مضاءة بأضواء خافتة، تقدّم لنا مشهدًا خاصًا من مسرحيّة جميلة. استمرت جولتنا لأكثر من أربع ساعات، كانت كل لحظة منها مليئة بالضحك وتبادل اللّهجات، تلك الجولة بالدراجات كانت من أفضل التجارب في حياتي، وجعلتني أقدّر جمال الأمور البسيطة والمغامرات غير المتوقّعة التي تجمع بين الأصدقاء.

في اليوم الأخير في واشنطن، انتهى المؤتمر، وبدأ الجميع بالعودة إلى جامعاتهم المضيفة، ولكن بالنسبة لي، كان هناك شيء آخر ينتظرني، شيء له طابع خاص يعيدني خمس سنوات إلى الوراء. قبل خمس سنوات، التقى خالي عبد الرحمن بشخص في واشنطن يُدعى نيل. كان نيل يرغب في تعلم اللغة العربية، وقرر أن يأتي ويعيش في لبنان، حيث أقام في بيت جدي وجدتّي لفترة من الزمن. كنت آنذاك صغيرًا، لكنني كنت أحد أفراد العائلة القلائل الذين يتحدثون الإنجليزية، ولديّ معرفة بالثقافة الأمريكية، وهذا ما جعلني أقترب من نيل حيث كنّا نتبادل الأحاديث وخلقنا رابطًا خاصًا بيننا. بعد عودته إلى الولايات المتحدّة، انقطعت بيننا الأخبار ولم نتواصل. لكنّ الحياة أحيانًا تحمل لنا مفاجآت غير متوقعة. قبل أيام من المؤتمر، وجدت نيل ينشر صورًا على حسابه في إنستغرام في واشنطن. تواصلت معه فورًا، وتفاجأت بردّه المتحمس، ورتّبنا لقاءً بيننا. من كان يتوقّع أن يعود ذلك الطفل اللبناني الذي تعرف عليه نيل منذ خمس سنوات ليجلس معه الآن في قلب العاصمة الأمريكية؟

ذهبنا إلى مطعم لبناني وتناولنا الطعام معًا، بينما كنا نتحدث عن حياتنا وكيف تغيرت خلال هذه السنوات. أرسلت صورة لنا إلى خالي، وكان ردّه مليئًا بالدهشة، كان من الصعب التصديق أنني قد كبرت وأصبحت قادرًا على إعادة وصل ما انقطع بعد كلّ تلك السنين. كانت تلك اللّحظة رمزًا لنضجي، شعرت أنّني لم أعد ذلك الطفل الصغير، حيث أدركت أن الحياة تتكون من هذه الدوائر التي تعيدنا دائمًا إلى نقطة البداية، ولكن في كل مرة نعود ونحن أكثر نضجًا وحكمة، والحمدلله.

ليلة من تلك اللّيالي

في تلك اللّيلة على الملعب، داعبتنا ألسنة الغروب المتلاشية في الأفق، تجمّعنا كما نفعل دائمًا، مجموعة من الإخوة المتماسكين بحبّ كرة القدم وبروابط غير مرئيّة من الصّداقة العميقة. كانت الأجواء مليئة بالضّحك ونحن نلعب، أقدامنا تضرب العشب في تناغم كبير ومثير، و قد كنت أنا في قمّة أدائي، كل حركة كانت دقيقة، كل تمريرة تصل إلى زملائي كما أتخيّلها في عقلي. لعبنا بشغف شديد، كما لو أنّ المباراة كانت مسألة حياة أو موت، وكأنّه في تلك اللحظة لم يكن هناك شيء آخر سوى ملعبنا هذا والباقي سراب. بعد المباراة، تجمّعنا جميعًا لالتقاط صورة جماعيّة، توثق تلك اللحظة من السعادة البحتة، تلك الصورة التي لا تزال هي صورة ملفي الشخصي على وسائل التواصل حتى اليوم، تذكيرًا بتلك الأخوّة والسعادة التي اجتاحتنا في ذلك المساء. ختمنا اللّيلة بتوجّهنا إلى "ستيك أند شيك"، مكاننا المفضل بعد المباريات. جلسنا حول الطاولة، ثمّ أخذت محادثاتنا طابعًا أعمق. تحدثنا عن الزواج، عن المسؤوليات التي تنتظرنا كرجال، وعن الأحلام التي نحملها في قلوبنا. ظهر موضوع مغادرتي قريبًا، ليذكّرنا بأن هذه اللحظات التي نعيشها معًا ليست أبديّة. لكن بدلًا من أن يثبط ذلك عزيمتنا، جعل وقتنا معًا أكثر قيمة. في وقت لاحق، عدت إلى السكن مع عمر وهشام، كان الجو في الغرفة هادئًا، من ذلك الهدوء الذي يدعو إلى الصراحة والتفكّر. جلسنا معًا، متحلقين حول طاولة صغيرة، تحفّنا أجواء من السكينة التي تسبق عادة الأحاديث الثقيلة. بدأت، كالعادة، أتحدث عن أهمية تذكر الله في كل حركة نقوم بها، وكيف يجب أن تكون حياتنا رحلة مستمرة نحو الله، وأن تكون كل خطوة نتخذها موجّهة نحو رضاه. كانت كلماتنا تخرج بهدوء، وكأنّنا نحاول أن نصيغ أفكارنا بشكل يجعلها تصل إلى القلب مباشرة دون حاجز. تعمّقت المحادثة بطبيعتها، وتحوّلت إلى حديث عن الغفران والرحمة، ممّا دفع عمر إلى طرح سؤال كشف عن الجانب الضعيف الذي كان يخفيه طويلًا: "هل تظن أن الله سيغفر لي ذنوبي؟"

توقفت للحظة، محاولًا أن أستوعب الثقل الذي حملته كلماته، كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها عمر قريبًا من الله بهذا الشكل، مدركًا لثقل خطاياه، كان الخوف من الذنوب، والندم على الأخطاء الماضية، قد استيقظ بداخله، وكان يتوق لإصلاح الأمور. نظرت إليه، كما ينظر الأخ المحبّ لأخيه، محاولًا أن أزرع في قلبه الطمأنينة والإيمان، وقلت له بحنان: "يا عمر قال تعالى في كتابه العزيز: 'قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.' ثم أكملت حديثي قائلاً: "رحمة الله واسعة، أوسع ممّا يمكننا أن نتخيله. تذكر أن الله قريب منا، أقرب مما نعتقد، وهو دائمًا مستعد لاستقبال عباده التائبين. يكفي أن نعود إليه بقلب صادق، وأن نطلب منه المغفرة بصدق. ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: "التوبة تجبّ ما قبلها"؟ إن الله يحب التوابين، ويريد منا أن نعود إليه مهما كان خطأنا. المهم أن لا نستسلم، وأن نستمر في الدعاء والتوبة. كلما زادت أخطاؤنا، زادت حاجتنا للرجوع إلى الله، وهو الغفور الرحيم الذي يغفر الذنوب جميعًا. إن الله، يا عمر، يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة رجل ضاع في صحراء ثم وجد راحلته. إن الله يعلم ما في قلوبنا من ندم، وهو يفرح بعودتنا إليه، ونحن يجب علينا ألا نفقد الأمل في رحمته مهما عظم الذنب."

انسابت الكلمات منّي، وانسابت الدّموع من عين عمر، تلك الدموع التي تنهمر دون صوت، لكنّها تحمل في طيّاتها ثقلًا كبيرًا. كان عمر يشعر بتلك الرغبة الحقيقيّة في التوبة، في العودة إلى الله بقلب نقي، وكأنّه يحاول أن يخلع عن نفسه كلّ ما مرّ به من أخطاء ليبدأ من جديد. وعندما رأيت تلك الدموع، شعرت بعمق اللحظة، وقفت واقتربت منه، قبلت رأسه بلطف، وقلت له: "عمر، هذه هي دموع المؤمن، دموع من يشعر بثقل الذنب ولكن أيضًا بثقة في رحمة الله. تذكّر يا عمر، أنّ الله لا يغلق بابه في وجه عبدٍ يرجو رحمته." وبينما كنت أتحدث، لاحظت أن هشام كان يجلس بهدوء بجانبنا، يستمع دون أن ينطق بكلمة، ولكنّه كان يبتسم ابتسامة صغيرة، مليئة بالرضا. كانت تلك الابتسامة تعبّر عن فهم عميق لما يحدث، وعن فرحة بصمت بأننا نقترب جميعًا من الله في تلك اللحظة. كانت ليلة تبدو مقدسة، ليلة تذكّرنا فيها جمال العودة إلى الله، وبرحمته التي دائمًا ما تكون قريبة، وبقوة الأخوة التي لا تشاركك فقط لحظات الفرح، بل تقودك وتساندك في لحظات الشك والانكسار. شعرت أن تلك اللحظة قد جمعتنا برباط أقوى من أي وقت مضى، رباط الإيمان والخشوع، رباط يدرك فيه الإنسان أن الطريق إلى الله دائمًا مفتوح، وأنّنا لسنا وحدنا في هذه الرحلة، بل نحن محاطون بأخوة يذكّروننا دائمًا بالطريق الصحيح، ويحملون معنا أعباء الحياة ويسيرون معنا نحو نور الهداية والطمأنينة.

هناء و عائشة

علاقتي مع عائشة وهناء لم تكن مجرد صداقة عابرة، بل كانت بمثابة طوق نجاة ربطني بالحياة في غربتي. من اللّحظة التي بدأت أشعر فيها بضغط الغربة وحنيني إلى الوطن، كانتا هما الشخصيتان اللّتان استطعت أن أعتمد عليهما. كانتا تشعران بما أمرّ به دون أن أحتاج للتعبير عنه بالكلمات، وكأن هناك تواصل غير مرئي بيننا. في الأوقات التي كنت أشعر فيها بأنّني غريب في هذه البلاد، كانت عائشة وهناء تعرفان كيف تخفّفان عنّي، سواء بالاستماع إلى ما يشغل بالي أو بمساعدتي على ترتيب رحلاتي عبر الولايات المتحدة. كنّا نتحدث طويلًا عن الأماكن التي نود زيارتها، وكانت لديهما دائمًا اقتراحات مثيرة للاهتمام تجعلني أتحمس لمغامرات وقصص جديدة. وجدت فيهما ملاذًا آمنًا للتحدث عن أي شيء يدور في ذهني، مهما كان الأمر حسّاسًا أو معقّدًا. كنت أعلم أنّني أستطيع أن أكون على طبيعتي معهما، دون خوف من الحكم أو الانتقاد. في تلك الأوقات التي كنت أجلس فيها وحيدًا لتناول الإفطار خلال شهر رمضان، كانت عائشة وهناء تأتيان لتشاركانني وجباتي، فنتناول الطعام معًا، ونتبادل الأحاديث حول مواضيع مختلفة. كنا نتحدث عن مخاوفنا، عن أحلامنا، وعن التحديات التي نواجهها في حياتنا. أتذكّر بوضوح تلك اللّيلة التي خرجنا فيها للتسوق لشراء الهدايا لعائلتي قبل عودتي إلى لبنان. كنت أرغب في اختيار الهدايا المثالية لعائلتي، فأتت عائشة وكانت، كما كانت دائمًا، بجانبي لتقديم النصائح والمساعدة. أخذتني إلى المتاجر المختلفة، وأشارت عليّ بحقيبة سفر مناسبة لرحلتي الطويلة. لم يكن الأمر مجرد تسوق بالنسبة لها؛ كانت تتأكد من أن كل شيء سيكون مرتبًا لي، وأنني سأتمكن من العودة إلى عائلتي بأفضل صورة ممكنة. وبعد أن انتهينا من شراء الحقيبة، اتّجهنا للبحث عن هدية لأختي الصغيرة. كانت عائشة تولي اهتمامًا خاصًا لهذه المهمة، وساعدتني في اختيار هدية تعجبها. تلك المواقف كانت تعني لي الكثير، لأنني شعرت حقًا بأنها تفكر في أدقّ التفاصيل، كما لو كانت جزءًا من عائلتي.

وهناء، كعادتها، كانت تضيف لمسة من المرح والروح الإبداعية إلى كل شيء نقوم به. كانت تضحك وتتبادل النكات معنا، ممّا جعل كلّ لحظة تقضيها معنا مميزة. أتذكّر كيف كنّا نقضي ساعات طويلة في مركز الطّلاب، نلعب البلياردو، نصلّي في غرفة الصلاة، نجتمع في حلقات القرآن، نقرأ ونتدبّر، ونتشارك أحاديث عن الدين والإيمان. وفي بعض الأحيان، كنا نتحدث عن مواضيع غريبة وعشوائية، نضحك ونتساءل عن كل شيء وأي شيء.

إحدى أجمل الذكريات التي نسجناها هي يوم قررنا جميعًا الذهاب إلى ورشة تلوين الفخار. كانت تلك التجربة مختلفة عن أي شيء آخر فعلناه معًا. جلسنا حول طاولة مليئة بالألوان، وبدأنا في اختيار القطع التي سنلوّنها. بالنسبة لي، اخترت ثلاث بومات لأزيّنها بألوان أعلام لبنان، واليمن، وتركيا. كان هدفي من وراء ذلك هو الاحتفاء بتلك الثقافات التي أصبحت جزءًا من حياتي وتجربتي في الغربة، كلّ بومة كانت تمثّل فردًا من هذا الثلاثي الغريب. أما هناء، وكعادتها في كل شيء، أضفت لمسة فنية فريدة من نوعها حيث قررت أن تلوّن طبقًا صغيرًا من الفخار بألوان ثمرة الأفوكادو! امّا عائشة، فاختارت أن تلوّن صندوق موسيقي قديم، ووضعت كلتاهما أيضًا أعلام بلادنا على القطع الفنيّة. عندما انتهينا من التلوين، شعرنا جميعًا بأنّنا قد صنعنا شيئًا يعكس جزءًا من علاقتنا. قرّرت أن أتبادل قطعتي مع هناء، حيث شعرت أنّ هذا الأمر سيذكّرنا دائمًا بصداقتنا النقيّة. تلك الأيام التي قضيناها معًا، تلك اللحظات البسيطة التي كانت تبدو عادية في وقتها، أصبحت الآن جزءًا من ذكرياتي الثمينة. كانت علاقتي بعائشة وهناء مزيجًا من الاحترام المتبادل والرغبة الصادقة في مساعدة بعضنا البعض على النمو والتطور. كنّا ندفع بعضنا إلى الأمام، نساند بعضنا في لحظات الضعف، ونعمل على أن نكون أفضل معًا، تمامًا كقطعة البوم التي التحمت أجنحتها سويًّا...

إلى اللّقاء

مع اقتراب الامتحانات النهائية، بدت الأيام الأخيرة في الجامعة ثقيلة، كأنّها ترفض المضي قُدُمًا نحو النهاية المحتومة. كنا نعلم جميعًا أن الوقت لم يعد في صالحنا، وأنّ اللّحظات التي نقضيها معًا كانت تتناقصتدريجيًّا مع كل دقيقة تمضي. أصبحت المكتبة ملاذنا الأخير، حيث قضينا ساعات طويلة، نتنقّل بين الكتب والمراجع، نحاول بكل جهدنا أن نحافظ على تماسكنا الأكاديمي، رغم مشاعر الحزن التي كانت تتسلّل إلى قلوبنا. كان الامتحان الكبير يقترب، وأنا كنت غائبًا عن الكثير من الحصص، لذلك كان عليّ أن أضاعف مجهودي لأتمكّن من تحقيق الدرجات العالية التي كنت أطمح إليها. كنا ندرس معًا،

نتناول الطعام في المكتبة، نتحدث في فترات الاستراحة القصيرة عن المستقبل الذي ينتظرنا، وعن اليوم الذي سأترك فيه هذه الجامعة، والذي كان مقدّرًا أن يكون في العاشر من مايو. كان الحديث عن يوم الرحيل يملأ أجواءنا بشعور من الحزن العميق، لكنّه كان أيضًا موضوعًا لا يمكن تجاهله. كنّا نعلم جميعًا أن ذلك اليوم سيأتي لا محالة، وكنّا نحاول بكل ما أوتينا من قوة أن نستغل كل لحظة تبقّت لنا معًا. ومرّت الأيام سريعًا، أديت امتحاناتي بشكل ممتاز، وبحلول التاسع من مايو، شعرت أن الوقت بدأ ينفذ. قررت أن أقضي آخر يوم لي في الجامعة بطريقة تجعلني أتذكّره دائمًا. بدأت اليوم بلعب كرة القدم مع الشباب، كانت تلك المباراة الأخيرة بالنسبة لي، كنّا نلعب وكأننا نحاول أن نجمد الزمن، نتبادل الضحكات والمزاح، ولكن في أعماق قلوبنا كنّا نعلم أنّ هذه ستكون آخر مرة نجتمع فيها بهذا الشكل. بعد المباراة، توجهنا إلى الكافيتيريا، تناولنا الطعام معًا كما فعلنا مرات عديدة من قبل، لكن هذه المرة كان لكل لقمة نكهة خاصة، نكهة الفراق، لقد كانت هناك لحظات من الصمت، تأمّلنا فيها وجوه من حولنا وأدركنا أنّنا لن نراها مرة أخرى لبعض الوقت. قرّرنا أن نقضي الليل في السّكن الخاص بي، وبقينا مستيقظين حتى الساعة الخامسة صباحًا، نتحدث عن كل شيء ولا شيء في نفس الوقت، نتذكر المغامرات التي خضناها سويًا ونضحك.

في الصباح، استيقظت على صوت المنبه، كان الوقت قد حان للرحيل. شعرت بثقل لا يمكن وصفه وأنا أجهّز حقائبي، كان وكأنني أترك جزءًا من روحي هنا. جاء بهاء ليقلّني إلى محطة الحافلات، وكان أرسلان بجانبي، يساعدني في حمل الأمتعة. عندما وصلنا، كان جميع الإخوة هناك؛ سيد، وعبد الله، ومثنى، ويوسف، وبهاء، وأرسلان. كانوا قد تجمّعوا جميعًا لتوديعي، وكان المشهد مؤلمًا. نظرت إلى وجوههم، وبدأت دموعي تسيل دون قدرة على التوقف. بكيت بحرقة، لأنهم كانوا يمثلون لي العائلة الثانية التي بنيتها هنا، كانوا يمثلون الأصدقاء الذين رافقوني في هذه الرحلة، والذين أصبحت أحبهم كما أحب عائلتي. بكيت لأنني قد لا أراهم مرة أخرى، ولأنني كنت أدرك أن هذه اللحظة ستكون نهاية فصل جميل في حياتي. بدأت الحافلة في التحرك، ومعها تحركت مشاعري، كان كل شيء حولي يبدو مرًا. لحسن الحظ، كان هشام معي في الحافلة، لأنه كان عائدًا إلى الأردن أيضًا لقضاء الصيف. كنت مرتاحًا لوجود صديقي بجانبي، شخص يعرف كل ما مررنا به سويًا. تحدثنا طويلاً خلال الرحلة، بكينا وتذكرنا كل اللحظات التي عشناها معًا. كانت تلك الذكريات لا تُنسى، وحقيقة أنني كنت أترك كل هذا وراءي كانت صعبة التحمل. عندما وصلنا إلى المطار، بدأت المرحلة الأخيرة من الرحلة. نقلت أمتعتي إلى الداخل، وهناك وجدت سامي، صديقي العزيز، الذي جاء ليودعني. لم أكن أتوقع رؤيته، لكن حضوره كان بمثابة البلسم على جروحي. قدّم لي بعض الهدايا، ودعا لي بسلامة الوصول، وتحدثنا عن علاقتنا التي توحدت في حب الله. عانقته بشدة، وشكرته على كل شيء فعله من أجلي، على أنه كان لي أخًا حقيقيًا في هذه الأرض البعيدة. صعدت بعدها إلى صالة المغادرة، وهناك وجدت هناء وعائشة تنتظرانني. كانتا تبكيان بحرقة، وبدت هناء في حالة من عدم التصديق. وفي خضمّ كلّ هذه الفوضى العاطفيّة، قدمت لي عائشة سلسلة مفاتيح صنعتها بأسمائنا عليها، ثم قدّمت لي قطعة من صوف الخروف الذي كانت تربّيه واسمه "إسطنبولوت". أمّا آخر الهدايا فكان ألبومًا مليئًا بالصور التي توثق مغامراتنا سويًا، وبينما كنّا نقلّب في الصّور، نادانب صوت المطار، المطار؟.. كنت فيه البارحة صباحًا أغادر بيروت إلى أميركا ودموع والدتي تسيل على خدّيها، ثمّ عدت ليلًا إلى بيروت، من مطار أميركا، حاملًا ألبوم الصّور الذي صنعه أصدقائي هناك ليخلّدوا ذكرياتنا الجميلة، ومغامراتنا التي لا تفارقني، ودموعهم التي تتساقط مع دويّ الكلمات، "أكان ما عشناه حقيقة، أستكون فقط يا عبدالرحمن فكرةً في مخيّلتنا عند رحيلك؟"، هل نلتقي مجدّدًا، وهل نعود لسلسلة الزيارات مع خالي، وهل ستمضي الأيّام فلا نعلم فيها ما نأكل ولا الأمور التي تضحكنا ولا المشاكل التي تبكينا، أتمرّ الأيّام فلا يشاركنا بساطتها أحد؟ أتكثر عليّ الذكريات فأنساها؟ وهل تبقى حكايانا يتيمةً لا تجد لها مستمعًا، ولا تجد لأنفسها فينا كلماتٍ تنصفها وتعطيها حقّها، وإلى كلّ تلك الصّور الحديثة، التي التقطتها أجدد العدسات، في أقرب الأيّام، كأنّي عندما أحملها بين يديّ أرى ألوانها تزول لتصير بيضاء وسوداء، وتصاب عيناي بومضاتٍ تصيّر أناملي أناملَ عجوزٍ اخترقتها التجاعيد وسمّرتها شموس الأيّام الماضية لتلتحم الأيّام، وتلتطم أمواج البارحة باليوم، بينما تتساقط الدّموع على جامعة جورجتاون، وعلى شال خالي في نيويورك، وعلى وجهي ووجه أصدقائي في أميركا، وتصبح صوري الجديدة صورًا قديمة وصوري القديمة صورًا جديدة في ألبوم حياتي، ألبوم الحكايا الضائعة وكلمتيْ إلى اللّقاء.